الباب الثالث والعشرون

الحروب الصليبية

١٠٩٥ — ١٣٩١

الفصل الأول

أسبابها

كانت الحروب الصليبية هى الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ؛ ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير فى تاريخ أوربا والشرق الأدنى ، ففيها عمد الدينان العظيمان — المسيحية والإسلام — ، آخر الأمر ، وبعد قرون من الجدل والنقاش ، إلى الفيصل الأخير فيما يشجر بين بنى الإنسان من نزاع ، ونعنى به محكمة الحرب العليا ؛ وفيها بلغ كل تطور فى العصور الوسطى ، وكل توسع فى الشئون التجارية والديانة المسيحية ، وكل تحمس فى العقيدة الدينية ، وكل ما فى الإقطاع من قوة ، وفى الفروسية من فتنة وبهجة ، وبلغ هذا كله غايته فى حرب دامت مائتى عام فى سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية(*) هو زحف الأتراك السلاجقة . وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى . وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحا رحيما ؛ استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة فى ممارسة شعائر دينها إذا استثنينا بعض فترات

(*) الاسم الإنجليزى Crusade مشتق من اللفظ الأسبانى Cruzada أى عليه علامة الصليب :

قصيرة قليلة : نعم إن الحاكم بأمر الله ، الخليفة المجنون ، دمر كنيسة الضريح المقدس (١٠١٠) ؛ ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها[١] . وقد وصفها الرحالة المسلم ناصرى خسرو بأنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص ، بذل فى بنائها أعظم ما يستطاع من الحذق والمهارة ، وزين كل مكان فى داخلها بالنسيج الحريرى البيزنطى المطرز بخيوط الذهب ، ورسم فيها المسيح عليه السلام راكباً على ظهر حمار[٢] ؛ وكان فى أورشليم كنائس أخرى كثيرة ، وكان فى وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم ، وكان الحج إلى فلسطين قد أصبح من زمن بعيد إحدى شعائر العبادة أو التوبة من الذنوب ، فكان الإنسان أينما سار فى أوربا يلتقى بحجاج يدلون على أنهم أدوا هذه الشعيرة بأن يضعوا على أثوابهم شارة فى شكل الصليب من خوص النخل (*) جاءوا به من فلسطين ؛ ويوصف هؤلاء فى كتاب بيرز بلاومان Piers Plowman بأنه « كان من حقهم أن يكذبوا ويخادعوا ما بقى من حياتهم[٣] » . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين فى عام ١٠٧٠ ، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير . وتقول قصة قديمة لا نجد ما يؤيدها ، إن أحد هؤلاء الحجاج وهو بطرس الناسك حمل إلى إربان الثانى Urban II من سمعان بطريق أورشليم رسالة تصف بالتفصيل ما يعانيه المسيحيون فيها من اضطهاد وتستغيث به لينقذهم (١٠٨٨) .

وكان السبب المباشر الثانى من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة . لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف فى ملتقى الطرق الممتدة بين أوربا وآسية ، تصد جيوش آسية وجحافل

(*) وكان هؤلاء يسمون Palmers من كلمة palm أى النخلة ومن معانى كلمة Palmer غشاش أو مخادع فى اللعب . (المترجم)

السهوب . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فإن اضطراب شئونها الداخلية ، وشيعها الخارجة على الدين ، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذى حدث فى عام ١٠٥٤ ، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدى رسالتها التاريخية . وبينا كان البلغار ، والپشناق Patznaks ، والكومان Comans ، والروس يدقون أبوابها فى أوربا ، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية ، وكاد الجيش البيزنطى أن يقضى عليه عند ملازكرت فى عام ١٠٧١ ، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥) ، وطرسوس ، ونيقية ذات الماضى التاريخى الدينى ، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها ، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسية الصغرى بعقد صلح مذل ، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التى توالت بعدئذ على أملاكه . ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ فى أيدى الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرقى أوربا كله ، ولـمـا بقى لمعركة تور (٧٣٢) أثر ما . وبعث ألكسيوس برسله إلى إربان الثانى وإلى مجلس بياسنزا Piacenza يستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الترك ؛ وكان من أقواله « إن من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسية بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية .

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية — پيزا ، وجنوى ، والبندقية ، وأملفى Amalfi — فى توسيع ميدان سلطانها التجارى الآخذ فى الازدياد . ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ — ١٠٩١) ، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من أسپانيا (١٠٨٥ ومابعدها) ، أصبح البحر المتوسط الغربى حراً للتجارة المسيحية ؛ وأثرت المدن الإيطالية وقويت لأنها هى الثغور التى تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب ، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين فى الجزء

الشرق من البحر المتوسط وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غربى أوربا . ولسنا نعلم إلى أى حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا .

وصدر القرار النهائى من إربان نفسه ، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة . فقد دعا جربرت Gerbert ، حينما أصبح البابا سلفستر الثانى Sylvester II ، العالم المسيحى لإنقاذ بيت المقدس ، ونزلت حملة مخفقة فى بلاد الشام (حوالى ١٠٠١) ؛ ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجورى السابع وهنرى الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : « إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله »[٤] . وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس إربان مجلس بياسنزا فى مارس من عام ١٠٩٥ ؛ وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلا للعالم المسيحى ، وتبحث فى شن الحرب على المسلمين . ولعل الذى دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر فى مغامرة فى هذا الميدان البعيد غير مؤكد ؛ وما من شك فى أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحى والكنيسة المسيحية إلى أبعد حد ؛ وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما فى طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة ، تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطية . ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى ، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحيا عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الدينى ، ورومة تعود حاضرة للعالم ؛ وكان هذا تفكيراً أملته رغبة فى الحكم لا تعلو عليها رغبة .

وظل البابا بعدئذ بين شهرى مارس واكتوبر من عام ١٠٩٥ يطوف بشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا ، يستطلع طلع الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه . واجتمع المجلس التاريخى بمدينة كلير مونت Clermont فى مقاطعة أوفرنى ، وهرع

إليه آلاف الناس من مائة صقع وصقع لم يقف فى سبيلهم برد نوفمبر القارس . ونصب القادمون خيامهم فى الأراضى المكشوفة ، وعقدوا اجتماعاً كبير لا يتسع له بهو ، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة فى وسطهم مواطنهم لربان الفرنسى وألقى عليهم باللغة الفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً فى تاريخ العصور الوسطى :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! . . . لقد جاءت من تخوم فلسطين ، ومن مدينة القسطنطينية ، أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ، قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق ؛ ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب . وهم يهدمون المذابح فى الكنائس ، بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان ، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم — أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال ، وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رءوس من يقفون فى وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم — أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست ... لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث ، وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج . إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تخلصوا من ذنوبكم ، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى فى ملكوت السموات(٥) » .

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة : « تلك إرادة الله Dieu li volt » وردّد إربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم فى الحرب ، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم ويقول وليم مالمزبرى William Malmsbury : « وتقدم بعض النبلاء من فورهم ، وخروا راكعين بين يدى البابا ، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله »(٦) وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب ، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ لا بمعناه المجازى . وانتقل البابا النشيط إلى مدن أخرى — إلى تور ، وبوردو ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبلييه ، ونيمز Nimes ... وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية . ولما بلغ رومة بعد أن غاب عنها سنتين ، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحى تقوى ، وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التى تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين . ولم يلق فى عمله هذا مقاومة جدية ؛ فحرر رقيق الأرض ، وحرر التابع الإقطاعى طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده ؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية ، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم . وأمر

بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين — وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا ، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعى ؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد فى تاريخها كله ، ووجد إربان نفسه السيد المرتضى — من الوجهة النظرية على الأقل — لملوك أوربا على بكرة أبيهم . وسرَت روح الحماسة فى أوربا كما لم تسر فيها من قبل فى أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٥ — ١٠٩٩

وانضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة : منها أن كل من يخر صريعاً فى الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه ، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضى التى كانوا مرتبطين بها ، وأعفى سكان المدن من الضرائب ، وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل ، وتوسع البابا فى سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين ، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم فى فلسطين ، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة ؛ وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضى التى ولد فيها المسيح ومات ، منهم رجال سئموا الفقر الذى كانوا يعانونه ، والذى ظنوا أن لانجاة لهم منه ، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع فى مغامرات جريئة فى بلاد الشرق ، ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات فى تلك البلاد ، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم ، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم ، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة . ونشطت الدعاوة المألوفة فى الحروب فأخذت تؤكد الاضطهاد الذى يلقاه المسيحيون فى فلسطين ، والمعاملات الوحشية التى يلقونها على أيدى المسلمين ، والأكاذيب عما فى العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال ؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالا للنبى محمد(٧) ؛ وأخذ الثرثارون « الأتقياء » يقولون : إن النبى قد

أصابته نوبة صرع التهمته فى أثنائها الخنازير البرية[٨] . ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق، وعن الغانيات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل[٩].

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن تجمتع من أجلها جموع متجانسة يستطاع إخضاعها لنظام عسكرى . وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا فى كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف المجاهدين ليقوم النساء بخدمة أزواجهن، والأبناء بخدمة آبائهن ، ولعلهم كانوا على حق فى هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين . وكان إربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ ، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد ، فسار جحفل منهم عدته نحو اثنى عشر ألفا (لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان) وبدأ رحلته من فرنسا فى شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ، ووالتر المفلس Walter the penniless (Gautar Sans-Avoir) ، وقام جحفل آخر — ربما كانت عدته ٥٠٠ من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك Gattschalck ، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو اللينچينى Count Emico of Le iningen — . وكانت هذه الجموع غير النظامية هى التى قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا ويوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان المجندون قد جاءوا معهم ببعض المال ، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذى لا يغنى من الطعام ، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم ؛ وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم فى لهفة — أليست هذه أورشليم ؟ ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما فى طريقهم من الحقول والبيوت ،

وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب[١١] . وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها فى وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفدت أموالهم ، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون، والجذام ، والحمى ؛ والمعارك التى خاضوا غمارها فى الطريق ، رحب بهم ألكسيوس ؛ ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا فى أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس، والمنازل، والقصور . وأراد ألكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التى أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر . فأمدها بالسفن التى عبرت بها البسفور ، وأرسل إليها المؤن ، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً . ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر ، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم ونفاد صبرهم ، فزحفوا على نيقية . وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك ، كلها من مهرة الرماة ، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقى على أحد منها . وكان ولتر المفلس من بين القتلى ؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التى لا تخضع لقيادة ، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية ، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥ .

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى فى مجراها كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله فى إقليمه . ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك ، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا ، ووليم الثانى ملك إنجلترا ، وهنرى الرابع ملك ألمانيا ، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان إربان الثانى يدعو إلى الحرب الصليبية ، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين ، وكانوا كلهم تقريبا من الفرنسيين أو الفرنجة . وبهذا كانت الحرب الصليبية الأولى فى الأغلب الأعم مغامرة فرنسية ، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذكر غربى أوربا سماه بلاد الفرنجة (الأفرنج) ، وكان

الدوق جدفرى Godfrey سيدبويون Bouillon (وهى مقاطعة صغيرة فى بلچيكا) يجمع بين صفات الجندى والراهب — كان شجاعاً محنكا فى الحرب ، ورعاً إلى حد التعصب فى الدين ؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو Tarantô ابن روبرت جسكارد Robert Guiscard قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته ، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة فى الشرق الأدنى . وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلى Tancred of Hauteville الذى شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة Jeusalem Delivered لتاسو Tasso . وكان بهى الطلعة ، شجاعاً لا يهاب الردى ، شهماً ، كريماً ، يحب المجد والمال ، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحى . وكان ريموند Reymond كونت طولوز (طلوشة) قد حارب المسلمين من قبل فى أسپانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع ، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله ، ودنس بخله تقواه .

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة ؛ وعرض بوسمند على جدفرى أن يستوليا على المدينة ، فرفض جدفرى هذا العرض لأنه لم يأت ، على حد قوله ، إلا لقتال الكفرة[١٢] ، ولكن هذه الفكرة لم تمت . وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتقرون سادة الشرق المثقفين الخادعين ، ويرون أنهم مارقون من الدين ، مخنثون ، مترفون . وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة فى كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها وأسواقها ، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل . ولعل ألكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التى كانت تملأ صدور منقذيه ، وكان ما لاقاه فى قتال جحافل الفلاحين (وقد لامه الغرب على هزيمته إياهم) مما دعاه إلى اصطناع الحذر ، وإن شئت فقل إلى النفاق . نعم إنه استنجد بالغرب على الأتراك ، ولكنه لم يطلب أن تتجمع قوى أوربا المتحدة على أبواب عاصمته ، ولم

يكن واثقاً قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون فى أورشليم بقدر ما يطمعون فى القسطنطينية ، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أىَّ إقليم ينتزعونه من الأتراك ، وكان من قبل من أملاك الدولة البيزنطية . ولهذا عرض على الصليبيين المؤن ، والأموال ، ووسائل النقل ، والمعونة الحربية ، وعرض على زعمائهم رشا سخية[١٣] ، وطلب إليهم فى نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الإقطاعى ، وأن تكون كل الأراضى التى يستولون عليها إقطاعيات لهم منه . وأثرت الفضة فى نفوس النبلاء ورققت قلوبهم فأقسموا اليمين المطلوبة .

وعبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين فى عام ١٠٧٩ ، وكانت لا تزال موزعة القيادة . وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساما على أنفسهم من المسيحيين ، فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين فى أسپانيا ، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم فى شمالى إفريقية ؛ وكان الخلفاء الفاطميون فى الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية ، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزءها الشمالى والقسم الأكبر من آسية الصغرى . وخرجت أرمينية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة . وزحفت جيوش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية . واستسلمت الحامية التركية فى المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها (١٩ يونية سنة ١٠٩٧) ، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطورى على حصنها ، وحمى المدينة من النهب ، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية ، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه ضالع مع الأتراك . واستراح الصليبيون فى المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية ، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركى تحت قيادة قلج أرسلان ، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء (أول يوليه سنة ١٠٩٧) ، واخترقوا آسية الصغرى دون أن يلقوا فيها عدوا غير قلة الماء والطعام ، والحر الشديد الذى لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله . ومات الرجال والنساء ، والخيل

والكلاب ، من العطش فى أثناء هذا الزحف الشاق الذى اجتازوا فيه خمسمائة ميل ؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسى ليفتحوا لأنفسهم فتوحا خاصة بهم — فسار ريمند ، وبوهمند ، وجدفرى إلى أرمينية ؛ وسار تنكرد وبولدوين (أخو جدفرى) إلى الرها حيث أسس بلدوين بالختل والغدر[١٤] أولى الإمارات اللاتينية فى الشرق (١٠٩٨) . وأخذت قوات الصليبيين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير ؛ فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على أنطاكية .

ويصف المؤرخ الإخبارى صاحب چستا فرنكورم Gesta Francorum أنطاكية بأنها « مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن »[١٥] . وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر ، مات فى خلالها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع ، وقد وجد بعضهم غذاء جديداً بامتصاص « أعواد حلوة سموها زكرا Zucra » (وهى كلمة مشتقة من لفظ السكر العربى) ، ففيها ذاق «الفرنجة» طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة[١٦] . وقدمت العاهرات للغزاة متعا أشد خطراً من السكر ، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهر سورية[١٧] . وجاءت الأنباء فى شهر مايو من عام ١٠٩٨ أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية ، لكن هذه المدينة سقطت فى أيدى الصليبيين (٣ يونية ١٠٩٨) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام . وخشى كثيرون من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة ، فركبوا السفن فى نهر العاصى ، وفروا هاربين . وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم ، ولكن جماعة من الفارين غرروا به ، فأدخلوا فى روعه أن المسيحيين هزموا ، فعاد أدراجه ليدافع عن آسية الصغرى ، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة . وأراد قسيس من مرسيلية يدعى بطرس بارثلميو Peter Bartholomew أن

يبعث الشجاعة من جديد فى قلوب الصليبيين ، فادعى أنه عثر على الحربة التى نفذت فى جنب المسيح ، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس ، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال فى ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوى أدهمار وسماهم الشهداء القديسين موريس ، وثيودور ، وچورچ . وبعث ذلك فى قلوب الصليبيين روحا جديدة ، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً . ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية ، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه . وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة فى حزم من الحطب ، وخرج سالما فى الظاهر ، ولكنه توفى فى اليوم الثانى من أثر الحروق أو من الإجهاد الذى لم يحتمله قلبه ، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبى[١٨] .

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير أنطاكية اعترافاً بفضله ، وكان يمتلك هذا الإقليم فى ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعيا خاضعاً لألكسيوس ، لكنه فى الواقع كان يحكمه بوصفه حاكما مستقلا ؛ وقال زعماء الصليبيين إن عجز ألكسيوس عن أن يخف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاء التى أقسموها له . وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم ، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم . وبعد حروب دامت ثلاث سنين ، نقص فيها عددهم إلى ١٢٫٠٠٠ من المحاربين وقفوا فى اليوم السابع من شهر يونية عام ١٠٩٩ وهم مبتهجون متعبون أمام أسوار المدينة . وكان من سخريات التاريخ أن الأتراك الذين جاءوا ليقاتلوهم قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام ، وكان مخرجوهم هم الفاطميين . وعرض الخليفة الفاطمى على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح مشترطا على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم والذين يأتونها للعبادة . ولكن بوهمند وجدفرى طلبا التسليم بغير قيد أو شرط ، وقاومت حامية الفاطميين

المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوما ، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليه قاد جدفرى وتانكرد رجالها وتسلقوا أسوار المدينة ، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا فى سبيله الأمرين . وفى هذا يقول القس ريمند الإچيلى شاهد العيان :

وشاهدنا أشياء عجيبة ، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام ، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ، ثم أحرقوا فى النار . وكنت ترى فى الشوارع أكوام الروءوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل(١٩) .

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى ؛ يقولون إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم(٢٠) ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم ، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء ؛ واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس ، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما المسيح المصلوب . وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجا بالنصر ، وبتحرير المدينة ، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز !

الفصل الثالث

مملكة أورشليم اللاتينية ١٠٩٩ — ١١٤٣

اختير جدفرى البويونى الذى اعترف له آخر الأمر بالصلاح ، والتى المنقطعى النظير حاكما على دمشق على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو « حامى الضريح المقدس » ولم يدع الحاكم الجديد أنه خاضع لألكسيوس لأن الحكم البيزنطى لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٣٦٥ عاماً ، ولهذا أصبحت مملكة أورشليم اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة . وحرّم فيها المذهب الأورثوذكسى الشرقى ، وفرّ البطريق اليونانى إلى قبرص ، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية ، والمطران الإيطالى والحكم البابوى .

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها . وهذا هو الثمن الذى كان على المحررين العظام أن يؤدوه ؛ فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا التحرير جيش مصرى يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة فى أديان كثيرة وهزم جدفرى هذا الجيش القادم ، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة (١١٠٠) وخلفه أخوه بولدوين وهو أقل منه كفاية (١١٠٠ — ١١١٨) ، واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك . وشملت المملكة الجديدة فى عهد الملك فلك Fulk كونت أنجو (١١٣١ — ١١٤٣) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا ، ولكن المسلمين ظلوا مالكين حلب ، ودمشق ، وحمص . وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية ، تتركز على التوالى حول أورشليم ، وأنطاكية والرها ، وطرابلس ؛ ثم جزئت كل إمارة إلى إقطاعيات تكاد كل منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وكان سادتها المتحاسدون يشنون الحروب بعضهم على

بعض ، ويسكون العملة ، ويحاكون الملوك المستقلين فى هذه وغيرها من الشئون . وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك ، وتقيده سلطة كنسية دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه . وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور : يافا ، وصور ، وعكا ، وبيروت ، وعسقلان — إلى البندقية ، وبيزا ، وجنوى ، نظير ما تقدمه للمملكة الجديدة من معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من مؤن . أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهما المحاكم العليا فى أورشليم — وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الإقطاعى من الوجهة القانونية . وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها ، وأنزلوا ملاكها السابقين — سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين — منزلة أرقاء الأرض ، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ فى أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد (٢١) .

وكان فى المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف ، ولكنها كانت تتلقى معونة فذة من نظام من الرهبان الحربيين . ذلك أن تجار أملفى Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ على إذن ببناء مستشفى فى بيت المقدس لإيواء الفقراء أو المرضى من الحجاج . ثم نظم ريمند دو بى Raymond du Puy موظفى هذا المعهد تنظيما جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرس حياتها للعفة ، والفقر ، والطاعة ، وحماية المسيحيين فى فلسطين بالدفاع عنهم دفاعا عسكريا ؛ ومن ثم أصبح هؤلاء الفرسان فرسان مستشفى القديس يوحنا من أنبل الهيئات الخيرية فى العالم المسيحى . وحدث حوالى ذلك الوقت نفسه (١١١٩) أن نذر هيوده پايان Hugh de Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة ، وخدمة المسيحيين العسكرية ، وأن حصلوا من بلدوين الثانى على مسكن لهم بالقرب من الموضع الذى كان فيه هيكل سليمان ، وسرعان ما أطلق عليهم اسم فرسان المعبد . ووضع

لهم القديس برنار نظاما صارما ، لم يطيعوه زمنا طويلا ؛ وكان مما أثنى عليهم به أنهم « أكثر الناس علما بفن الحرب » ، وأمرهم « ألا يغتسلوا إلا نادراً » وأن يقصوا شعر رءوسهم[٢٢] . وكتب برنار إلى فرسان المعبد يقول « إن على المسيحى الذى يقتل غير المؤمن فى الحرب المقدسة ، أن يثق بما سينال من ثواب ، وعليه أن يكون أشد وثوقا من هذا الثواب إذا قُتِل هو نفسه ، وإن المسيحى ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهـذا الموت »[٢٣] ؛ ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير إذا كانوا يريدون النصر فى الحروب . وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أسود اللون ، على كمه الأيسر صليب ، أما الواحد من فرسان المعبد فكان يليس مئزراً أبيض على « حرملته » صليب أحمر . وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً مبعثه الدين . وانتقل فرسان المستشفى وفرسان المعبد من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين ؛ ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة ، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالى ١١٨٠[٢٤] ، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر فى معارك الحروب الصليبية ؛ وذاعت شهرتهم الحربية . وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال ، فتوالت عليهما الإعانات من الكنيسة والدولة ، ومن الأغنياء والفقراء على السواء ؛ فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك فى أوربا ضياعا واسعة تشمل أديرة ، وقرى ، وبلدانا . وأدهشت كلتاهما المسيحيين والمسلمين بما أنشأت من الحصون الواسعة فى بلاد الشام ، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين ، وسط متاعب الحروب وكدحها ، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر[٢٥] . وفى عام ١١٩٠ أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيوتون بمعونة عدد قليل من الألمان فى بلادهم الأصلية ، وشادوا لهم مستشفى قرب عكا .

وعاد معظم الصليبيين إلى أوربا بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فنقص بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الحكومة المزعزعة الأركان نقصاً يعرضها

للخطر الشديد . ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقى فيها عدد منهم للقتال . وكان الروم فى الشمال يترقبون فرصة تتاح لهم لاستعادة أنطاكية والرها وغيرهما من المدن التى كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية ؛ وأخذ المسلمون فى الشرق ينشطون ويضمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات المسيحية . وكان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التى أعقبت سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين . واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدى الكفرة النجسة[٣٦] . وكان الخليفة عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء ، ولكن عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى ولد عبداً رقيقاً لبى الدعوة ، وزحف جيشه الحسن القيادة فى عام ١١٤٤ وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجى الشرقى ، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام . واغتيل زنكى وخلفه ابنه نور الدين ، وكان يماثله فى شجاعته ، ويفوقه فى قدرته . وكانت أخبار هذه الحوادث هى التى أثارت أوربا ودفعتها إلى الحرب الصليبية الثانية .

الفصل الرابع

الحرب الصليبية الثانية : ١١٤٦ — ١١٤٨

واستغاث القديس برنار بالبابا يوجنيوس الثالث لينادى مرة أخرى بحمل السلاح . وكان يوجنيوس وقتئذ فى صراع مع الخارجين على الدين فى رومة نفسها ، فطلب إلى برنار أن يقوم هو نفسه بالدعوى . وكانت هذه فكرة سديدة لأن القديس كان أعظم شأنا من الرجل للذى نصبه هو بابا . فلما أن خرج من صومعته فى كليرفو Clairvaux ليدعو الفرنسيين إلى الحرب خفتت أصوات الشك التى كانت مستكنة فى صدور المؤمنين ، وزالت المخاوف التى نشرتها القصص التى كانت تروى عن الحروب الصليبية الأولى . واتخذ برنار سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع وأقنعه بأن يحمل الصليب ، ثم وقف والملك إلى جانبه وأخذ يخطب الجمع الحاشد فى ڤيزلاى Vézelay (١١٤٦) ؛ ولم يكد يتم خطبته حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح ، وتبين أن ما كان معداً من الصلبان لا يكفيهم ؛ فمزق برنار مئزره ليصنع منه ما يحتاجه من الشارات ، وكتب إلى البابا يقول إن « المدائن والحصون قد خلت من سكانها ، ولم يبق إلا رجل واحد لكل سبع نساء ، وترى فى كل مكان أرامل لأزواج لا يزالون أحياء » . ولما أن ضم إليه فرنسا على هذا النحو انتقل إلى ألمانيا ، واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور كنراد الثانى بأن الحرب الصليبية هى القضية الوحيدة التى يستطاع بها توحيد حزبى الجاف Guelf والهنستوفن Hohenstaufen اللذين كان نزاعهما يمزق الدولة تمزيقاً . وانضوى كثيرون من النبلاء تحت لواء كنراد ، من بينهم الشاب فردريك السوابى Frederick of Swabfa الذى

أصبح فيما بعد بربروسا Barbarossa والذى مات فى الحرب الصليبية الثالثة .

وبدأ كنراد والألمان سيرهما فى يوم عيد الفصح من عام ١١٤٧ ، وتبعهما الفرنسيون فى يوم عيد العنصرة ، وكانوا يسيرون فى حذر على مسافة منهم ، لأنهم لم يكونوا واثقين أيهما أشد عداء لهم : الألمان أو الأتراك . وكان الألمان أيضاً يشعرون بمثل هذه الحيرة بين الأتراك واليونان ؛ وبلغ من كثرة المدن البيزنطية التى نهبت فى طريق الزاحفين أن أغلقت كثير منها أبوابها فى وجوههم ، ولم تقدم لهم إلا قليلا من المؤن أنزلتها فى سلات من فوق الأسوار . وعرض عليهم مانول كمنينوس Manuel Comnenus إمبراطور الرومان فى ذلك الوقت فى رقة ولطف أن تعبر الجيوش النبيلة مضيق الهلسپنت عند ستسوس Sestos ، بدل أن تخترق القسطنطينية ، ولكن كنراد ولويس رفضا هذا العرض ، وقامت طائفة فى مجلس لويس تدعوه إلى الاستيلاء على القسطنطينية وضمها إلى فرنسا ، ولكنه لم يستجب لهذه الدعوة . على أنه لا يبعد أن تكون أنباؤها قد ترامت إلى اليونان ؛ هذا إلى أن هؤلاء قد توجسوا خيفة من قامة فرسان الغرب ودروعهم ، وإن سرتهم حاشيتهم النسائية . فقد كانت اليانور المتعبة تصاحب زوجها لويس ، وكان الشعراء يصحبون الملكة ، ونبلاء فلاندرز وطلوشة يصطحبون معهم أزواجهم ، وكانت وسائل النقل التى مع الفرنسيين مثقلة بالحقائب والصناديق الملأى بالثياب ، ومواد التجميل ، يراد بها المحافظة على جمال تلك السيدات فى الجواء المتقلبة وفى صروف الدهر والحرب . وعجل مانويل بنقل الجيشين فى مضيق البسفور ، وأمد اليونان بالنقود المخفضة القيمة ليتعاملوا بها مع الصليبيين . وكثيراً ما أدى نقص المؤن فى آسية ، وارتفاع الأثمان التى يطالب بها اليونان ، إلى النزاع بين المتقدين ومن يريدون إنقاذهم من أعدائهم ، وكان مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة « الكفار » . وأصر كنراد على أن يسير فى الطريق الذى سارت فيه الحملة

الصليبية الأولى مخالفاً بذلك نصيحة مانويل . وتخبط الألمان فى سيرهم على الرغم من مرشديهم ، أو لعل ذلك كان بفعل مرشديهم ، فاجتازوا بطاحا بعد بطاح خالية من موارد الطعام ، ووقعوا فى كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون ، ودب فى قلوبهم اليأس لكثرة من هلك منهم . والتقى جيش كنراد عند دورليوم ، حيث هزمت الحملة الأولى جيش قلج أرسلان ، بقوة المسلمين الرئيسية ، ومنى فيها بهزيمة ساحقة ، لم ينج فيها من جيش المسيحيين أكثر من واحد من كل عشرة . وخدع الجيش الفرنسى الذى كان متأخراً وراء الألمان بمسافة طويلة بما جاءه من أخبار عن انتصار الألمان ، فتقدم فى غير حذر ، وقضى على الكثيرين من رجاله الجوع وهجمات المسلمين . ولما وصل إلى أضاليا أخذ لويس يساوم رؤساء بحارة السفن اليونانية على نقل جيشه بطريق البحر إلى طرسوس أو أنطاكية المسيحيتين ، وطالب أولئك الرؤساء بأجور باهظة عن كل شخص تحمله السفن ، فقبل لويس وطائفة من النبلاء ، وإليانور ، وسرب من السيدات الانتقال ، وتركوا بقية الجيش الفرنسى فى أضاليا ، وانقضت جيوش المسلمين على المدينة وقتلوا كل من فيها تقريباً من الجنود الفرنسيين (١١٤٨) .

ووصل لويس إلى بيت المقدس ومعه النساء وليس معه جيش ، كما وصل إليها كنراد بفلول الجيش الذى غادر به راتسبون . وحشد الملكان من هذه الفلول وممن كان فى العاصمة من الجنود جيشاً مرتجلا ، وزحفا به على دمشق ؛ وكانت قيـــادته موزعة بين كنراد ، ولويس ، وبولدوين الثالث (١١٤٣ — ١١٦٢) . وشجر النزاع فى أثناء الحصار بين النبلاء على الطائفة التى تحكم المدينة بعد سقوطها ، وتسرب عمال المسلمين إلى الجيش المسيحى ، ورشوا بعض الزعماء بالمال فجعلوهم يقعدون بلا عمل أو ينسحبون من الميدان[٢٧] . ولما أن ترامت الأنباء بأن أميرى حلب والموصل يزحفان بجيش كبير لفك الحصار عن دمشق تغلب دعاة الانسحاب ، فانقسم الجيش المسيحى إلى جماعات قليلة فرت إلى أنطاكية أو عكا ، أو بيت

المقدس . . وهزم كنراد وأصيب بالمرض ورجع مسربلا بالعار إلى ألمانيا ، وعادت إليانور وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا ، أما لويس فقد بقى فى فلسطين عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة .

وارتاعت أوربا لما أصيبت به الحملة الصليبية الثانية من إخفاق شنيع ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الله جل جلاله أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير ، وشرع النقاد يهاجمون القديس برنار ويصفونه بأنه خيالى متهور ، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم ، وقام فى أماكن متفرقة بعض المتشككة الجريئين يجادلون فى القواعد الأساسية للدين المسيحى . ورد عليهم برنار بقوله إن أساليب الله سبحانه لاتدركها عقول البشر ، وإن الوبال الذى حل بالمسيحيين ربما كان عقابا لهم على ما ارتكبوا من ذنوب . ولكن الشكوك الفلسفية التى أشاعها أبلار Abelard (المتوفى عام ١١٤٢) أخذت من ذلك الوقت تجد من يعبر عنها حتى بين جمهرة الشعب نفسه ، وسرعانما خبت جذوة التحمس للحرب الصليبية ، وتأهب عصر الإيمان للدفاع عن نفسه بالسيف والنار ضد الأديان الغربية أو عدم الإيمان بأديان على الإطلاق .

الفصل الخامس

صلاح الدين

وكانت حضارة جديدة عجيبة قد نشأت فى سوريا وفلسطين المسيحيتين . ذلك أن الأوربيين الذين استوطنوا هذين البلدين منذ عام ١٠٩٩ قد تزيوا شيئاً فشيئاً بالزى الشرقى ، فلبسوا العمامة والقفطان اللذين يوائمان مناخ تلك البلاد ذات الشمس والرمال ؛ وزاد اتصالهم بمن يعيشون فى تلك المملكة من المسلمين ، فقل بذلك مابين الجنسين من تنافر وعداء ، فأخذ التجار المسلمون يدخلون بكامل حريتهم البلدان المسيحية ويبيعون أهلها بضاعتهم ، وكان المرضى من المسيحيين يفضلون الأطباء المسلمين واليهود على الأطباء المسيحيين[٢٨] ، وأجاز رجال الدين المسيحيون إلى المسلمين أن يؤموا المساجد للعبادة ، وأخذ المسلمون يعلمون أبناءهم القرآن فى المدارس الإسلامية القائمة فى أنطاكية وطرابلس المسيحيتين ، وتعهدت الدول المسيحية والإسلامية بأن تضمن سلامة التجار والمسافرين الذين ينتقلون من إحداهما إلى الأخرى . وإذ كان الصليبيون لم يأتوا معهم إلا بعدد قليل من زوجاتهم فقد اتخذ كثيرون ممن أقاموا منهم فى الدول المسيحية لهم زوجات سوريات ؛ وسرعان ما كوّن أبناء هذا الزواج المختلط عنصراً كبيراً من سكان الدول الجديدة ، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب اليومى العامة للسكان ، وعقد الأمراء المسيحيون أحلافاً مع الأمراء المسلمين ضد منافسيهم من المسيحيين ، كما كان الأمراء المسلمون فى بعض الأحيان يستعينون « بالمشركين » فى شئون السياسة والحرب . ونمت صلات المودة الشخصية بين المسيحيين والمسلمين . وقد وصف الرحالة ابن جبير الذى طاف بسوريا المسيحية فى عام ١١٨٣ بنى دينه المسلمين بأنهم ينعمون بالرخاء ويلقون معاملة حسنة على يد الفرنجة . وكان مما

ساءه أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان ، تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ، ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التى وفدوا إليها والتى هى أرقى من حضارتهم(٢٩) .

وظلت مملكة أورشليم اللاتينية فى سنى السلم الأربعين التى أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية ، على حين أن أعداءها المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة . فقد مدّ نور الدين سلطانه من حلب إلى دمشق (١١٧٥) ، ولما مات أخضع صلاح الدين لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية (١١٧٥) ؛ ونشر تجارچنوى ، والبندقية ، وپيزا الاضطراب فى الثغور الشرقية بمنافساتهم القاتلة . وفى أورشليم أخذ الفرسان يتنازعون للاستيلاء على العرش. ولما استطاع جاى ده لوزينان أن يشق إليه طريقه بالختل (١١٨٦) ، استاءت لذلك طبقة الأشراف ، حتى قال أخوه جوفرى : « إن يكن جاى هذا ملكا فأنا خليق بأن أكون إلهاً » . ونصب ريجلند أمير شاتيون Reginald of Chatillon نفسه أميراً مستقلا فى قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن ، على حدود بلاد العرب ، وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقود بين الملك اللاتينى وصلاح الدين ، وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ، ويهدم قبر النبى فى المدينة ، ويدك أبنية الكعبة فى مكة(٣٠) . وأبحرت قوته الصغيرة المؤلفة من الفرسان المغامرين فى البحر الأحمر ، واتجهت نحو المدينة ؛ ولكن سرية مصرية باغتتها ، وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلا فروا مع ريجنلد ، وبعض الأسرى الذين سيقوا إلى مكة ، وذبحوا فى يوم عيد النحر (١١٨٣) .

وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء قد قنع بشن بعض الغارات الصغيرة على فلسطين ؛ فلما رأى ما فعله ريچنلد ثارت حميته الدينية ، فأخذ ينظم من جديد جيشه الذى فتح به دمشق ، والتقى بقوات المملكة اللاتينية فى معركة غير حاسمة عند مرج ابن عامر ذى الشهرة التاريخية (١١٨٣) ، ثم هاجم ريچنلد عند

الكرك بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت ، ولكنه لم يستطع دخول القلعة الحصينة . وفى عام ١١٨٥ وقع مع المملكة اللاتينية هدنة تدوم أربع سنين ؛ ولكن ريجنلد مل فترة السلم الطويلة ، فاعترض فى عام ١١٨٦ قافلة للمسلمين ، ونهب كثيرا من متاعها وأسر عدداً من أفرادها ، ومنهم أخت صلاح الدين ، وقال ريجنلد : « إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم » . ولم يأت محمد ؛ ولكن صلاح الدين ثارت ثائرته ، فأعلن الجهاد على المسيحيين ، وأقسم ليقتلن ريجنلد بيده .

ونشبت المعركة الفاصلة فى الحروب الصليبية كلها عند حطين بالقرب من طبرية فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ . وكان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء ؛ ودخل المسيحيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول فى حر منتصف الصيف المحرق . وانتهز المسلمون فرصة هبوب الريح نحو معسكر الصليبيين ، فأشعلوا النار فى الأعشاب البرية ، وحملت الريح الدخان فزاد متاعب الصليبيين . وفى هذا الاضطراب الأعمى انفصل مشاة الفرنجة عن فرسانهم ، وقتلوا عن آخرهم ؛ وبعد أن ظل الفرسان يقاتلون قتال اليائسين ضد السلاح ، والدخان ، والظمأ خروا منهوكى القوى ، فقتل منهم من قتل وأسر الباقون . ولم تظهر جيوش المسلمين شيئاً من الرأفة بفرسان المعبد أو المستشفى ، وأمر صلاح الدين أن يؤتى له بالملك جاى والدوق ريجنلد ، فلما أقبلا عليه قدم الشراب إلى الملك دليلا على أنه قد عفا عنه ، أما ريجنلد فقد خيره بين الموت والإيمان برسالة النبى ، فلما رفض قتله . وكان مما غنمه المسلمون فى هذه المعركة الصليب الذى كان الصليبيون يتخذونه علماً لهم فى المعركة ، ويحمله فيها أحد القساوسة ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة فى بغداد . ولما رأى صلاح الدين أنه لم يبق أمامه جيش يخشى بأسه ، زحف لتحرير عكا ، و أطلق فيها سراح أربعة آلاف أسير من المسلمين ، وكافأ جنوده بما غنمه

من ثروة هذا المرفأ الكثير المتاجر ، وخضعت فلسطين كلها تقريباً لصلاح الدين وبقيت فى قبضة يده بضعة أشهر .

ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح ، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله ، وإنه لايرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها . وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة فى تحصينها ، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلا دون أن يقف أحد فى سبيلهم ، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة ، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملا فى إنقاذهم ، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة ، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة ، أما إذا لم يكن لهم أمل فى هذه المعونة ، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال ، وتعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم(*) . ورفض المندوبون هذا العرض ، وقالوا إنهم لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منقذ الخلق(٣١) . ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثنى عشر يوما ، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب (٤٧ر٥٠ ؟ ريالا أمريكيا) عن كل رجل ، وخمس قطع عن كل امرأة ، وقطعة واحدة عن كل طفل ، أما فقراء أهلها البالغ عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت (٢٧٠ر٠٠٠ ؟ ريال أمريكى) التى بعث بها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ؛ وقبلت المدينة هذه الشروط « بالشكر والنحيب » على حد قول أحد الإخباريين المسيحيين ، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى فى عام ١٠٩٩ . وطلب العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء ، فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً ؛ وطلب بليان Balian زعيم المقاومين

(*) ألا ما أعظم هذا النبل ! (المترجم)

المسيحيين هدية مثلها ، وأجيب إلى ما طلب ، وأعتق ألفاً آخرين ، وحذا حذوه المطران المسيحى وفعل ما فعل صاحبه ، وقال صلاح الدين إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه ، وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسهما ، وإنه يفعل فعلهما ، ثم أعتق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن ؛ ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفا من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير فداء فكانوا أرقاء ؛ وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا فى واقعة حطين ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات فأطلق سراح من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن (ومن بينهم جاى) أما « النساء والبنات اللاتى قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهن من ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله ، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة »[٣٢](*) ذلك ما يقوله إرنول Ernoul مولى باليان .

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة أخرى ، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن فى طرابلس وأنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من يمينهما المغلظة ، وأخذا يدبران الخطط للثأر من صلاح الدين[٣٣] . وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى فى بيت المقدس ، وأعطى المسيحيين حق دخولها ، على أن يكونوا غير مسلحين ، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم[٣٤] ؛ وطهرت قبة الصخرة التى حولها المسيحيون إلى كنيسة بأن رشت بماء الورد ، وأزيل منها الصليب الذهبى الذى كان يعلوها ، بين تهليل المسلمين وأنين المسيحيين ؛ وسار صلاح الدين على رأس جيشه لحصار عكا ، ولما وجدها أمنع من عقاب الجو سرح الجزء الأكبر من جنده وانسحب وهو مريض متعب إلى دمشق (١١٨٨) فى الخمسين من عمره ؛

(*) يالها من شهامة منقطعة النظير . (المترجم)

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة

١١٨٩ — ١١٩٢

وكان احتفاظ المسيحيين بمدائن صور أنطاكية ، وطرابلس مما ترك فى قلوبهم أثارة من الأمل . وكانت الأساطيل الإيطالية لا تزال تسيطر على مياه البحر المتوسط ، متأهبة لنقل المحاربين الصليبيين إذا أدوا لها أجورها . وعاد وليم كبير أساقفة صور إلى أوربا ، وأخذ يروى فى الاجتماعات التى تعقد فى إيطاليا ، وفرنسا وألمانيا قصة سقوط بيت المقدس ، ولما قدم إلى ألمانيا تأثر بدعوته فردريك بربرسا إلى حد دفع الإمبراطور العظيم وهو فى سن السادسة والسبعين إلى الزحف بجيشه من فوره (١١٨٩) ، وحياه العالم المسيحى كله وخلع عليه اسم موسى الثانى الذى سيشق الطريق إلى الأرض الموعودة . ولما عبر الجيش الجديد مضيق الهلسپنت عند غاليبولى ، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً جديداً ، كرر أخطاء الحملة الصليبية الأولى ومآسيها ؛ واقتفت أثره العصابات التركية وأزعجته ، وقطعت عنه المؤن ، فمات مئات من رجاله جوعاً ، ومات فردريك ميتة غير شريفة إذ غرق فى نهر سالف الصغير فى قليقية (١١٩٠) ، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا .

وكان رتشرد الأول (الأنكتار) الملقب « قلب الأسد » قد توج من زمن قريب ملكاً على إنجلترا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره ، فصمم هذا الملك على أن يجرب حظه مع المسلمين . وإذ كان يخشى أن يغير الفرنسيون فى أثناء غيابه على الأملاك الإنجليزية فى فرنسا ، فقد أصر على أن يصحبه فليب أغسطس ، ووافق الملك الفرنسى ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والعشرين

من عمره ، وتلقى الملكان الشابان الصليب من وليم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب فى فيزلاى ، وأبحر جيش رتشرد المؤنف من النورمان (لأن الإنجليز لم يشترك منهم فى الحروب الصليبية إلا القليل) من مرسيليا ، وأبحر جيش فليب من چنوى على أن يلتقى الجيشان فى صقلية (١١٩٠) ، فلما التقيا فيها شجر النزاع بينهما واستسلما للهو وقضيا فى نزاعهما ولهوهما نصف عام . وأغضب تانكرد ملك صقلية رتشرد ، فانتزع هذا منه مسينا « بأسرع مما يتطلبه من القس ترتيل صلاة السحر » ، ثم ردها إليه نظير أربعين ألف أوقية من الذهب ؛ فلما توفر له المال بهذه الطريقة أبحر بجيشه إلى فلسطين . وتحطمت بعض سفنه على ساحل جزيرة قبرص ، وقبض حاكمها اليونانى على بحارة السفن وزجهم فى السجون ، فوقف رتشرد عندها بعض الوقت ، وفتح الجزيرة ، وأعطاها إلى جاى ده لوزينان ملك بيت المقدس المشرد . وبلغ عكا فى يونيه من عام ١١٩١ بعد عام من مغادرته ڤيزلاى ، وكان فليب قد سبقه إليها . وكان حصار المسيحيين لعكا قد دام تسعة عشر شهراً ، وهلك فيه منهم عدة آلاف ، ثم استسلم المسلمون بعد أسابيع قليلة من وصول رتشرد ؛ وطلب المنتصرون من المغلوبين مائتى ألف قطعة لن الذهب (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأن يسلموا إليهم ١٦٠٠ أسيراً من صفوة أهل المدينة ، وأن يردوا إليهم الصليب الحق . ووعدهم أهل المدينة أن يجيبوهم إلى ما طلبوا ؛ وأيد صلاح الدين هذا الاتفاق ، وسمح للمسلمين من سكان عكا ما عدا الألف والستمائة السالفى الذكر أن يغادروا المدينة ومعهم من المؤن ما يستطيعون حمله . ثم أصيب فليب أغسطس بالحمى فعاد إلى فرنسا وترك وراءه قوة فرنسية مؤلفة من ١٠٫٥٠٠ رجل ، وأصبح رتشرد القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة .

وبدأت وقتئذ طائفة من الوقائع المشوشة الفذة ، تعاقبت فيها الضربات والمعارك مع التحيات والمجاملات ؛ وأظهر فيها الملك الإنجليزى والسلطان الكردى

بعض ما تتصف به حضارتاهما ودیناهما من أنبل الصفات وأظرفها . وليس معنى هذا أن كلا الرجلين كان من أولياء الله الصالحين ، فقد كان فى وسع صلاح الدين أن يكيل بكل ما لديه من بأس الضربات المميتة لعدوه إذا بدا له أن أهدافه الحربية تتطلب هذا ؛ وكذلك سمح رتشرد ذو النزعة الروائية الشعرية لنفسه أن يفعل ما لا يتفق مع حياته النبيلة . من ذلك أنه لما تباطأ زعماء عكا المحاصرة فى تنفيذ شروط الاتفاق المعقود بينهم ، أمر رتشرد أن تضرب رءوس ٢٫٥٠٠ من الأسرى المسلمين أمام أسوار المدينة لينبه بذلك الأهلين إلى وجوب الإسراع فى تنفيذ الشروط[٣٥] ؛ فلما بلغ هذا النبأ صلاح الدين ، أمر بأن يعدم كل من يقع بعدئذ فى الأسر أثناء المعارك مع الملك الإنجليزى . ثم بدل رتشرد نغمته ، فعرض أن ينهى الحروب الصليبية بأن يزوج أخته جوان للعادل أخى صلاح الدين ، ولكن الكنيسة عارضت هذه الفكرة فتخلى رتشرد عنها .

وأيقن رتشرد أن صلاح الدين لن يصبر على الهزيمة ، فأعاد تنظيم قوته ، وتأهب للسير ستين ميلا نحو الجنوب بمحاذاة شاطئ البحر ليفك الحصار عن يافا التى كانت وقتئذ فى أيدى المسيحيين ويحاصرها المسلمون ، ورفض كثير من النبلاء أن يسيروا معه ، وفضلوا أن يتخلفوا فى عكا ، ويحيكوا الدسائس للاستيلاء على عرش فلسطين ، لأنهم كانوا واثقين من أن رتشرد سيستولى عليها . وعاد الجنود الألمان إلى بلادهم ، وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعصون أمر الملك الإنجليزى ويفسدون عليه خططه الحربية ؛ كذلك لم يكن العامة مستعدين لبذل جهود جديدة فى سبيل فلسطين . ويقول المؤرخ الإخبارى المسيحى لحملة رتشرد الصليبية إن المسيحيين المنتصرين بعد هذا الحصار الطويل :

استسلموا للخمول والترف ، وأبوا أن يغادروا المدينة المليئة بأسباب النعيم — أحسن أنواع الخمور ، وأجمل الغانيات . وأطلق الكثيرون منهم لشهواتهم العنان

فانحلت أخلاقهم ودنسوا المدينة بترفهم ، حتى أصبح العقلاء يتوارون خجلا من طيشهم ونهمهم[٣٦] .

وزاد الطين بلة أن رتشرد أمر ألا يصحب الجيش من النساء إلا الغسالات ممن لا يغرين الجند بالإثم . وعوض رتشرد عيوب جنوده بمقدرته الفذة على القيادة ، وحذقه فى الهندسة العسكرية ، وشجاعته الملهمة فى الميدان . وكان فى هذه الصفات كلها متفوقاً على صلاح الدين وعلى سائر قادة الحروب الصليبية المسيحيين .

والتقى جيشه بجيش صلاح الدين عند أرسوف وانتصر عليه انتصاراً غير حاسم (١١٩١) ، وطلب مواصلة القتال ، ولكن رتشرد سحب جنوده إلى داخل أسوار يافا ، ثم عرض عليه صلاح الدين الصلح ؛ وبينا كانت المفاوضات دائرة بين القائدين اتصل كنراد مركيز منفرات Conrad Marquls of Montferrat ، الذى كان يتولى أمر صور ، فى مفاوضات مستقلة مع صلاح الدين ، وعرض عليه أن يصبح حليفه ، وأن يستولى على عكا ويردها للمسلمين ، إذا وافق صلاح الدين على أن يتملك هو صيدا وبيروت . ولكن صلاح الدين أجاز لأخيه ، على الرغم من هذا العرض ، أن يعقد مع رتشرد صلحاً يترك للمسيحيين جميع ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ، ونصف بيت المقدس . وبلغ من سرور رتشرد بهذه الشروط أن خلع على ابن السفير المسلم لقب فارس (١١٩٢) ؛ لكنه حين سمع بعد قليل من الوقت أن صلاح الدين يواجه بعض المتاعب فى الشرق ، رفض شروطه ، وحاصر داروم واستولى عليها ، وتقدم حتى أصبح على بعد اثنى عشر ميلا من بيت المقدس . ودعا صلاح الدين جنوده إلى حمل السلاح ، وكان قد سرحهم ليستريحوا فى فصل الشتاء ، وحدث الشقاق فى هذه الأثناء فى معسكر المسيحيين ، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التى فى طريق بيت المقدس قد سممت ، وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب ،

وعقدوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه ، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة البعيدة عنهم بنحو ٢٥٠ ميلا . وكان رتشرد قد سئمت نفسه هذه الفعال ، وعافتها ، وملأ اليأس قلبه ، فانسحب إلى عكا وأخذ يفكر فى العودة إلى إنجلترا .

ولكنه لما سمع أن صلاح الدين عاود الهجوم على يافا ، وأنه استولى عليها بعد يومين لا أكثر ، أبى عليه كبرياؤه أن ينكص عن غرضه ، وبعث فى نفسه روحا جديدة ، وأقلع من فوره إلى يافا مع من استطاع أن يحشدهم من الجنود . ولما وصل إلى الميناء نادى بأعلى صوته « الويل للقاعد ! » وقفز إلى وسطه فى البحر ، وأخذ يلوح ببلطته الدنمرقية الشهيرة ويقتل كل من يقف فى سبيله ، ثم قاد جنوده إلى داخل المدينة ، وأخرج منها جميع الجنود المسلمين . كل هذا ولم يكد صلاح الدين يعرف ما حصل (١١٩٢) . فلما عرفه استدعى القسم الرئيسى من جيشه لإنقاذ المدينة ، وكان عدد رجاله يربو كثيراً على عدد جنود رتشرد الثلاثة الآلاف ، ولكن شجاعة الملك وجرأته أكسبتاه النصر . ولما رأى صلاح الدين أن رتشرد راجلا بعث إليه بجواد من عنده ، وقال إن من العار أن يقاتل هذا الرجل الشهم راجلا . وغضب جنود صلاح الدين من هذا العمل وأمثاله فلم يعودوا يطيقون صبراً عليه ؛ وأخذوا يلومونه على أن ترك جنود حامية يافا أحياء ليقاتلوه فيها مرة أخرى . ثم سار رتشرد آخر الأمر — إذا جاز لنا أن نصدق رواة القصة المسيحيين — أمام جيش المسلمين وحربته مدلاة إلى جانبه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته[٣٧] .

ثم تبدلت الحال فى اليوم الثانى ، وجاءت الأمداد إلى صلاح الدين ، واستولى الملل مرة أخرى على رتشرد ، وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم ، فأرسل يطلب الصلح من جديد . واشتدت عليه الحمى فطلب فاكهة وشرابا بارداً ،

فما كان من صلاح الدين إلا أن بعث إليه بالكمثرى والخوخ والثلج . وبطبيبه الخاص . وفى اليوم الثانى من سبتمبر ١١٩٢ وقع البطلان شروط صلح يدوم ثلاث سنين ، وقسمت فلسطين قسمين ؛ فاحتفظ رتشرد بجميع ما فتحه من المدن الممتدة على طول الساحل من عكا إلى يافا ؛ وسمح للمسلمين والمسيحيين بحرية الانتقال من أحد القسمين إلى الآخر ؛ وتعهد السلطان بحماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين (ولعل التجار الإيطاليين الذين يهمهم قبل كل شىء أن يسيطروا على الثغور البحرية ، قد أقنعوا رتشرد بالتخلى عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على المدن الساحلية) . وأقيمت المآدب والألعاب احتفالا بالصلح ؛ ويقول صاحب سيرة رتشرد فى هذا : « والله وحده يعلم مقدار السرور الذى ملأ قلوب الشعبين ، وهو سرور يجل عن الوصف »[٣٨] . وزالت إلى حين الأحقاد من الصدور ؛ ولما ركب سفينته إلى إنجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ، ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولى على بيت المقدس . وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها رتشرد (الأنكتار) لا أى رجل سواه[٣٩] .

وبعد فإن اعتدال صلاح الدين ، وصبره ، وعدله قد غلبت بهاء رتشرد ، وشجاعته ، ومهارته الحربية ؛ كما غلب المسلمون بفضل إخلاص زعمائهم ووحدتهم الزعماء الإقطاعيين المنقسمين على أنفسهم ، والذين يعوزهم الولاء للغرض والإخلاص فى المقصد ؛ وكان قصر خط التموين من وراء المسلمين أعظم فائدة من سيطرة المسيحيين على البحار . وكانت الفضائل والأخطاء المسيحية أبرز فى السلطان منها فى الملك المسيحى ؛ فقد كان صلاح الدين مستمسكاً بدينه إلى أبعد حد ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ؛ ولكنه كان فى العادة شفيقاً على الضعفاء ، رحيما بالمغلوبين ، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموا

جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامى « الخاطئ » فى ظنهم رجلا يصل فى العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ، ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها ، وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب . ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارا واحدا(٤٠) ؛ وقد ترك لابنه الظاهر قبل موته بزمن قليل وصية لا تسمو فوقها أية فلسفة مسيحية(*) :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ؛ وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ؛ وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ؛ فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ؛ ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ؛ واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم(**) » .

ومات فى عام ١١٩٣ ولم يتجاوز سنه الخامسة والخمسين .

(*) الحق أن عظمة صلاح الدين منشؤها استمساكه بأوامر دينه واتصافه بفضائل هذا الدين . (المترجم)

(**) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الوصية عن كتاب « صلاح الدين » لاستانلى لين پول ونقلناها نحن عن سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تأليف القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . (المترجم)

الفصل السابع

الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ — ١٢٠٤

أفلحت الحملة الصليبية الثالثة فى أخذ عكا ولكنها لم تفلح فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وكانت هذه نتيجة ضئيلة ميئسة لحملة اشترك فيها أعظم ملوك أوربا . وكان غرق بربرسا ، وفرار فيليب أغسطس ، وإخفاق رتشرد ، ودسائس الفرسان المسيحيين فى الأرض المقدسة التى لم يرعوا فيها واجباً أو ضميراً ، أو النزاع الذى قام بين فرسان المستشفى وفرسان المعبد ، وتجدد الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، كل هذا قد حطم كبرياء أوربا ، وأذلها ، وأضعف ثقة العالم المسيحى بها . ولكن موت صلاح الدين المبكر ، وانقسام دولته بعد وفاته ، بعث فى قلوب العالم المسيحى آمالا جديدة ، فلم يكد إنوسنت الثالث Innocent III يجلس على عرش البابوية (١١٩٨ — ١٢١٦) ، حتى أخذ يطالب العالم المسيحى ببذل مجهود جديد ، وقام فلك ده نوبى Fnlk de Neuilly ، وهوقس ساذج ، يدعو الملوك والسوقة إلى حرب صليبية رابعة . وكانت نتيجة الدعوة ميئسة ؛ فقد كان الإمبراطور فردريك الثانى طفلا فى سن الرابعة ؛ وكان فليب أغسطس يرى أن حملة صليبية واحدة تكفيه طوال حياته ، ونسى رتشرد كلماته الأخيرة لصلاح الدين فأخذ يسخر من دعوة فلك ، ويقول له : « إنك تدعونى إلى التخلى عن بناتى الثلاث — الكبرياء ، والبخل ، والانغماس فى الملاذ ، فدونك هى لأجدر الناس بها : كبريائى لفرسان المعبد ، وبخلى لرهبان سيتو Citeaux ، وانغماسى فى الملاذ إلى المطارنة »[٤٢] . ولكن إنوسنت واصل دعوته ، وقال إن حملة توجه إلى مصر مقدر لها الفوز بفضل سيطرة الإيطاليين على البحر المتوسط ، ثم تتخذ مصر الغنية الخصبة قاعدة للزحف

على بيت المقدس : ووافقت البندقية بعد مساومات طويلة على أن تعد ما يلزم لنقل ٤٥٠٠ من الفرسان والخيول ، و ٩٠٠٠ من أتباعهم ، وعشرين ألفاً من المشاة ، وما يكفى هذه القوة من المؤن تسعة شهور ، كل هذا فى نظير ٨٥٫٠٠٠ مارك من الفضة (نحو ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ورضيت أيضاً أن تمدهم بخمسين سفينة حربية بشرط أن تختص جمهورية البندقية بنصف الغنائم الحربية[٤٣] . على أن البنادقة لم يكن فى عزمهم أن يهاجموا مصر ، فقد كانوا يكسبون منها الملايين فى كل عام بما يصدرونه إليها من الخشب ، والحديد والسلاح ، وباستيراد العبيد ؛ ولم يكونوا يريدون أن يخاطروا بضياع هذه التجارة بالاشتراك فى الحرب ، أو باقتسامها مع پيزا وجنوى . ولهذا فإنهم وهم يفاوضون لجنة من الصليبيين عقدوا خلفا سريا مع سلطان مصر يضمنون بمقتضاه سلامة تلك البلاد من الغزو (١٢٠١)[٤٤] . ويقول إرنول Ernoul المؤرخ الإخبارى المعاصر إن البندقية حصلت على رشوة كبيرة نظير تحويل الحملة الصليبية عن فلسطين[٤٥] .

وتجمعت الجيوش الجديدة فى مدينة البندقية فى صيف ١٢٠٢ . وكان من أبرز رجالها المركيز بنفاس من منت فرات ، والكونت لويس من بلوا Blois ، والكونت بلدوين من فلاندرز ، وسيمون ده منت‌فورت الذى يستمد شهرته من الألبجنسيين ، وكان من بين أعيانها الكثيرين چيوفروا ده ڤيلهاردون Geoffroi de Villehardouin (١١٦٠ — ١٢١٣) ، مارشال شمپانيا الذى لم يقتصر عمله على ما اضطلع به من دور رئيسى فى الأعمال السياسية والحربية المتصلة بالحرب الصليبية ، بل إنه سجل تاريخها المعيب فى مذكرات سترت معايبها ، وكانت بداية النثر الفرنسى الأدبى . وجاء معظم الصليبيين من فرنسا جرت بذلك عادتها ؛ وكان قد طلب إلى كل رجل أن يأتى معه بقدر من المال يتفق مع موارده حتى يتجمع للحملة مبلغ ال ٨٥٫٠٠٠ مارك التى لابد من أدائها للبندقية تنفيذاً للشروط المتفق عليها معها : ونقص المبلغ المتجمع عن الواجب أداؤه

بأربعة وثلاثين ألف مارك ، وحينئذ عرض إنريكودندولو Enrico Dandolo الدوج الذى لا يكاد يبصر « ذو القلب العظيم » ، مدفوعاً إلى ما عرضه بكل ما أمدته به من تقى وقداسة سنوه الأربع والتسعون ، عرض هذا الدوج أن ينزل عن المبلغ الباقى إذا ساعد الصليبيون مدينة البندقية على فتح مدينة زارا Zara ، وكانت هذه المدينة وقتئذ أهم ثغور البحر الأدرياوى بعد البندقية نفسها ؛ وكانت البندقية قد استولت عليها فى عام ٩٩٨ ، وكثيراً ما خرجت عليها وأخضعت لها ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه من أملاك المجر ، ومنفذها الوحيد إلى البحر . وكانت ثروتها وقوتها آخذتين فى النماء ، ولهذا كانت البندقية تخشى منافستها لها فى تجارة البحر الأدرياوى . ووصف إنوسنت الثالث هذا الاقتراح بأنه اقتراح دنىء ، وأنذر كل من يشترك فيه بالحرمان ، غير أن أعظم البابوات شأناً وأقواهم سلطاناً لم يستطع أن يجعل صوته أعلى من رنين الذهب ، وهاجم الأسطولان المتحدان زارا ، واستوليا عليها بعد خمسة أيام ، وقسم الفاتحون الغنائم فيما بينهم ؛ ثم أرسل الصليبيون بعثة إلى البابا يرجون منه المغفرة ، فغفر لهم ، ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة ؛ فشكروا له غفران الخطيئة ، واحتفظوا بالغنيمة ؛ وتجاهل البنادقة أمر الحرمان ، وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية قد تعلمت شيئاً من الحملات الصليبية . ذلك أن هذه الإمبراطورية لم تقدم للصليبيين معونة تذكر ، ولكنها حصلت منهم على كسب عظيم ؛ فقد استردت الجزء الأكبر من آسية الصغرى ، وكانت تنظر بعين الرضا والاطمئنان إلى ماحل من الضعف بالغرب وبالإسلام فى كفاحهما للاستيلاء على فلسطين . وكان الإمبراطور مانيول Manuel قد ألقى القبض على آلاف من البنادقة من القسطنطينية وألغى إلى حين ما للبندقية فى تلك المدينة من امتيازات تجارية (١١٧١)[٤٦] ؛ ولم يستنكف إيزاك أنجيلوس Jsaac Angelus

أن يتحالف مع المسلمين[٤٧]؛ وفى عام ١١٩٥ خلعه أخوه ألكسيوس الثالث Alexius III وسجنه وفقأ عينيه ؛ وفر ابن إسحق واسمه أيضاً ألكسيوس إلى ألمانيا، ثم جاء إلى البندقية فى عام ١٢٠٢، واستغاث بمجلس شيوخها وبالصليبيين أن ينقذوا أباه ويعيدوه إلى عرشه ، ووعدهم فى نظير هذا العمل أن تساعدهم بيزنطية فى حربهم على الإسلام . وعقد دندولو والأشراف الفرنسيون مع الأمير الشاب اتفاقا عظيم الفائدة لهم : فقد أقنعوه أن يتعهد بأداء مائتى ألف مارك فضى إلى الصليبيين ، وأن يجهز جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل للخدمة فى فلسطين ، وأن يخضع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للبابا فى رومة[٤٨] . ولكن البابا إنوسنت الثالث نهى الصليبيين على الرغم من هذه المنح السخية عن مهاجمة القسطنطينية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا ؛ ورفض بعض الأشراف أن يشتركوا فى الحملة ، ورأى قسم من الجيش أنه فى حل من يمينه التى أقسمها بالاشتراك فى الحملة الصليبية وعاد إلى أوطانه ، ولكن فكرة الاستيلاء على أغنى مدينة فى أوربا ظلت مستحوذة على الكثيرين من الصليبيين يصعب عليهم مقاومتها ، ولهذا فإن الأسطول العظيم المكون من ٤٨٠ سفينة أقلع فى أول يوم من شهر أكتوبر عام ١٢٠٢ وسط مظاهر الابتهاج والتهليل بينا كان القساوسة الواقفون عند أبراج السفن الحربية ينشدون نشيد تعال أيها الخالق الروح Veni Creator Spilritus[٤٩] ، ووقف هذا الأسطول الضخم أمام القسطنطينية فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٣ . ويقول فيل هاردون فى وصفها :

وأؤكد لكم أن أولئك الذين لم يروا القسطنطينية من قبل قد فتحوا عيونهم واسعة ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون أن فى العالم كله مدينة فى مثل هذا الثراء ، حين أبصروا الأسوار الشامخة ، والأبراج الضخمة التى تتألف منها ، والقصور المنيفة ، والكنائس العالية التى لا يحصى عددها ، ولا يعتقد إنسان بوجودها إلا إذا كان قد رآها بعينيه ، وعرف ما بلغته هذه المدينة سيدة المدن

كلها من الطول والعرض . واعلموا أنه لم يكن بيننا رجل مهما بلغ من الشجاعة ، إلا اقشعر بدنه حين شاهدها ؛ وليس فى هذا شىء من العجب ، لأن أحداً من الناس لم يقم منذ بداية العالم بعمل يضارع فى جلاله هجومنا على تلك المدينة(٥٠) .

وأرسل المهاجمون بلاغاً نهائياً إلى ألكسيوس طلبوا فيه : أن يرد الإمبراطورية إلى الأخ الأعمى أو إلى ألكسيوس الصغير ، الذى كان يصحب الأسطول المغير ؛ فلما رفض ألكسيوس الثالث هذا الإنذار نزل الصليبيون إلى البر ، بعد مقاومة ضعيفة ، أمام أسوار المدينة ، وكان دندولو الشيخ المسن أول من وطئت قدماه الأرض . وفر ألكسيوس الثالث إلى تراقيا ، وأخرج الأشراف اليون إسحق أنجيلوس من سجنه وأجلسوه بأنفسهم على العرش ، وأرسلوا باسمه رسالة إلى الزعماء اللاتين يقول فيها إنه ينتظر ابنه ليحييه . وبعد أن استخلص الصليبيون وعداً من إسحق بارتباطه بما تعهد لهم به ولده دخل ندولو والأشراف المدينة ، وتوج ألكسيوس الصغير إمبراطوراً بالاشتراك مع أبيه . ولما عرف اليونان الثمن الذى اشترى به هذا النصر انقلبوا عليه غاضبين ساخرين ؛ فأما العامة فقد أخذوا يحسبون مقدار ما يجب عليهم أداؤه من الضرائب لجمع ما وعد به منقذيه من المال ، وأما الأشراف فقد ساءهم وجود أرستقراطية غريبة وقوة أجنبية فى المدينة ، وأما رجال الدين فقد رفضوا فى غضب وحنق أن يخضعوا لرومة . وحدث فى هذه الأثناء أن رأى بعض الجنود اللاتين جماعة من المسلمين يصلون فى مسجد مقام فى مدينة مسيحية ، فثارت ثائرتهم وأشعلوا النار فى المسجد ، وقتلوا المصلين . وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال ، وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً . وقام أمير من البيت المالك وتزعم ثورة من أهل المدينة وقتل ألكسيوس الرابع ، وأعاد إسحق إنجيلوس إلى السجن ، وجلس على العرش وتسمى باسم ألكسيوس الخامس دوكاس

Alexius V. Ducas ، وأخذ يعد جيشاً يطرد به اللاتين من معسكرهم فى غلطة . ولكن اليونان كانوا قد قضوا دهراً طويلا وهم آمنون وراء أسوارهم ، فلم يحتفظوا بشىء من الفضائل المتصلة باسمهم الرومانى ، فاستسلموا بعد شهر من الحصار ؛ وفر ألكسيوس الخامس ، وأخذ اللاتين الظافرون يعيثون فى العاصمة كأنهم جراد منتشر ملتهم (١٢٠٤) .

وازداد نهمهم لطول ما حرموا من فريستهم الموعودة ، فانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب ما لم تشهده رومة نفسها على أيدى الوندال أو القوط . نعم إنه لم يقتل فى هذه الحوادث كثيرون من اليونان — فلعل عدد القتلى لم يتجاوز ألفين ، أما السلب والنهب فلم يقفا عند حد . ووزع الأشراف القصور فيما بينهم ، واستولوا على ما وجدوه فيها من الكنوز ؛ واقتحم الجنود البيوت ، والكنائس ، والحوانيت ، واستولوا على كل ما راقهم مما فيها ؛ ولم يكتفوا بتجريد الكنائس مما تجمع فيها خلال ألف عام من الذهب والفضة والجواهر ، بل جردوها فوق ذلك من المخلفات المقدسة ، ثم بيعت هذه المخلفات بعدئذ فى أوربا الغربية بأثمان عالية . وعانت كنيسة أياصوفيا من النهب ما لم تعانه فيما بعد على يد الأتراك عام ١٤٥٣[٥١] ، فقد قطع مذبحها العظيم تقطيعاً لتوزع فضته وذهبه[٥٢] . وكان البنادقة ، وهم الذين يألفون المدينة التى كثيراً ما رحبت بهم تجاراً ، يعرفون أين توجد أعظم كنوزها ، فاستعانوا بذكائهم الفائق على أعمال التلصص ، وامتدت أيديهم إلى التماثيل ، والأقمشة ، والأرقاء ، والجواهر ؛ ونقلت الأربعة الجياد البرنزية التى كانت تطل على المدينة اليونانية ، وجعل بها ميدان القديس مرقس Piazza di San Marco : وكانت هذه السرقات المنظمة مصدر تسعة أعشار مجموعات الفنون والجواهر التى امتازت بها كنوز كنيسة القديس مرقس على سائر الكنائس[٥٣] . وبذلت محاولة ضئيلة للحد من اغتصاب النساء ، وقنع الكثيرون من الجنود بالعاهرات ، ولكن

إنوسنت الثالث أخذ يشكو من أن شهوات اللاتين المكبوتة لم ينج منها الكبار أو الصغار ، ولا الذكور أو الإناث ، ولا أهل الدنيا أو الدين ؛ فقد أرغمت الراهبات اليونانيات على احتضان الفلاحين أو الساسين البنادقة والفرنسيين[٥٤] . وبددت فى أثناء هذا السلب والنهب محتويات دور الكتب وأتلفت المخطوطات الثمينة أو فقدت ، واندلعت ألسنة النيران بعدئذ مرتين فى المدينة فالتهمت دور الكتب والمتاحف كما التهمت الكنائس والمنازل ، فضاعت مسرحيات سفكليز ويوربديز التى ظلت حتى ذلك الوقت باقية بأكملها ولم ينج منها إلا القليل ، وسرقت آلاف من روائع الفن أو شوهت أو أتلفت .

ولما خمدت حدة الاضطراب والنهب اختار أعيان اللاتين بلدوين أمير فلاندرز ملكا لمملكة القسطنطينية اللاتينية (١٢٠٤) ، وجعلوا الفرنسية لغتها الرسمية . وقسمت الإمبراطورية البيزنطية إلى أملاك إقطاعية يحكم كلا منها أمير نبيل إقطاعى . وكانت البندقية حريصة على السيطرة على طرق التجارة فاستولت على هدريانوبل ، وإبروس ، وأكارنانيا Acarnania ، والجزائر الأيونية ، وجزء من البلوبونيز ، وجزيرة عوبية ، وجزائر الأرخبيل ، وغاليبولى ، وثلاثة أثمان القسطنطينية . وانتزعت من أهل جنوى « المصانع » البيزنطية ، والمعاقل الخارجية ، واختار دندولو لنفسه ، وكان وقتئذ يترنح فى ثيابه الإمبراطورية ، لقب « دوج البندقية ، وسيد ربع الإمبراطورية الرومانية وثمنها »[٥٥] . ولم يطل عمره بعد هذا فقد مات فى زهو هذا النصر الذى ناله بفعال أثيمة لم يؤنبه عليها ضميره . واستبدل برجال الدين اليونان غيرهم من اللاتين ، رسم الكثيرون منهم قساوسة لهذه المناسبة دون أن يكون لهم تاريخ سابق فى شئون الدين ، ووافق إنوسنت الثالث على الاتحاد الرسمى بين الكنيستين اليونانية واللاتينية عن رضا

وطيب خاطر ، وإن ظل يحتج على الهجوم . وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم ، وأقام بعضهم فى الأملاك الجديدة ، ولم يصل منهم إلى فلسطين إلا حفنة قليلة ، لم تعمل فيها عملا ما . ولعل الصليبيين قد ظنوا أن القسطنطينية بعد استيلائهم عليها ، ستكون قاعدة ضد الأتراك أقوى مما كانت وهى بيزنطية ، ولكن النزاع بين اللاتين واليونان الذى دام أجيالا طوالا أنهك قوى العالم اليونانى ولم تفق الإمبراطورية البيزنطية من هذه الضربة القاصمة ، ومهد استيلاء اللاتين على القسطنطينية إلى استيلاء الأتراك عليها بعد مائتى عام من ذلك الوقت .

obeikandl.com

الفصل الثامن

إخفاق الحملات الصليبية

١٢١١ — ١٢٩١

لقد كانت فضائح الحملة الصليبية الرابعة ، مضافة فى نحو عشر سنين إلى إخفاق الحملة الثالثة ، مما لا يرتاح له الدين المسيحى الذى واجه بعد زمن قليل بعث فلسفة أرسطو ، وفلسفة ابن رشد الدقيقة القائمة على تحكيم العقل . وأخذ المفكرون يجهدون عقولهم ليفسروا للناس كيف رضى الله أن يهزم ناصروه فى تلك القضية المقدسة ، ولم يهب النصر إلا للبنادقة الأدنياء . ولاح لذوى النفوس الساذجة فى خلال هذه الشكوك أن لا سبيل إلى استرداد حصن المسيح الحصين إلا بالطهر والتجرد من الذنوب . ولهذا قام فى عام ١٢١٢ شاب ألمانى لايعرف التاريخ من ماضيه إلا أن اسمه نقولاس Nicholas ، وأعلن أن الله قد أمره أن يقود إلى الأرض المقدسة حملة صليبية مؤلفة من الأطفال . وعارضه فى ذلك رجال الدين وغير رجال الدين ، ولكن فكرته انتشرت انتشاراً سريعاً فى عصر تسوده أكثر مما تسود سائر العصور موجات الحماسة العاطفية . وحاول الآباء بكل ما وسعهم من الجهد أن يمنعوا أبناءهم من الاستجابة لدعوته ، ولكن آلافاً من الغلمان (وبعض البنات فى ثياب الغلمان) لا يزيد متوسط أعمارهم على الثانية عشرة تسللوا من بيوتهم وساروا وراء نقولاس ، ولعلهم قد سرهم أن ينجوا من استبداد البيت إلى حرية الطريق . وخرج القسم الأكبر من هذا الحشد المؤلف من ثلاثين ألف طفل ، من مدينة كولونى ، وساروا بإزاء نهر الرين ، وفوق جبال الألب . وأهلك الجوع عدداً كبيرا منهم وفتكت الذئاب ببعض المتخلفين ، واختلط اللصوص بالزاحفين وسرقوا ثيابهم وطعامهم ؛ ووصل من نجا منهم إلى

جنوى حيث سخر منهم الإيطاليون عبدة المصالح الدنيوية ؛ ولم يجدوا سفناً تقلهم إلى فلسطين ؛ فلما استغاثوا بإنوسنت الثالث أجابهم بلطف أن يعودوا إلى أوطانهم ، فمنهم من سمعوا النصيحة وقفلوا راجعين وهم حزانى مكتئبون ، فعبروا جبال الألب ، ومنهم من استقروا فى جنوى ، وتعلموا فيها أساليب العالم التجارية .

هذا ما حدث فى ألمانيا ، أما فى فرنسا فقد قدم إلى فليب أغسطس فى ذلك العام نفسه راع فى الثانية عشرة من عمره يدعى استيفن ، وقال إن المسيح ظهر له وهو يرعى غنمه ، وأمره أن يقود حملة من الأطفال إلى فلسطين ، فأمره الملك أن يعود إلى غنمه ، ولكن عشرين ألفاً من الغلمان اجتمعوا رغم هذا وساروا وراء استيفن ؛ واجتازوا فرنسا إلى مرسيليا ، وكان استيفن قد وعدهم أن البحر سينشق عند هذه المدينة ليمكنهم من الوصول إلى فلسطين راجلين ، ولم ينشق لهم البحر ، ولكن اثنين من أصحاب السفن عرضا عليهم أن ينقلاهم إلى حيث يقصدون دون أن يتقاضوا منهم أجراً . فازدحم الأطفال فى سبع سفن أقلعت بهم وهم ينشدون أناشيد النصر . وتحطمت اثنتان من هذه السفن بالقرب من سردانية وغرق كل من كانوا فيها ، وجىء بالباقين من الأطفال إلى تونس أو مصر حيث بيعوا فى أسواق الرقيق ، وشنق صاحبا السفن التى أقلتهم بأمر فردريك الثانى (٥٦) .

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه إنوسنت الثالث فى أثناء انعقاد مجلس لاتران الرابع دعوة أخرى إلى أوربا لاستعادة الأراضى المقدسة ، وعاد إلى الخطة التى حالت البندقية دون تنفيذها — خطة الهجوم على مصر . وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا ، والنمسا ، والمجر فى عام ١٢١٧ بقيادة أندرو Andrew ملك المجر ، وأفلحت فى الوصول إلى دمياط الواقعة على مصب النيل الشرقى . وسقطت المدينة فى أيديهم بعد حصار دام عاماً كاملا ، وعرض عليهم الملك الكامل سلطان مصر وسوريا الجديد أن يصالحهم على أن يسلم لهم الجزء الأكبر من بيت المقدس ، ويطلق سراح الأسرى المسيحيين ، ويعيد الصليب الحق . وطلب

الصليبيون أن يتقاضوا بالإضافة إلى ذلك كله غرامة حربيه ، ولكن الكامل رفض هذا الطلب ، وبدأت الحرب من جديد ، ولكنها لم تجر كما يشتهى الصليبيون ، فلم يأتهم ما كانوا ينتظرون من المدد ؛ ثم عقدت هدنة تدوم ثمانى سنين رد إلى الصليبيين بمقتضاها الصليب الحق ، ولكن دمياط أعيدت إلى المسلمين ، وجلا جميع الجنود المسيحيين عن أرض مصر .

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وإيطاليا الشاب ؛ ذلك أنه أقسم يمين الصليبيين فى عام ١٢١٥ ، ووعد أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ، ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ فى إيطاليا ، مضافاً إليها فى أغلب الظن ضعف إيمانه ، لم يمكناه من أن يبر بقسمه ووعده . فلما كان عام ١٢٢٨ زحف فردريك ، وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين ، على رأس الحملة الصليبية السادسة ، ولما وصل إلى فلسطين لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين ، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية . فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا أرسل رسله إلى الملك الكامل ، وكان يقود جيش المسلمين فى نابلس ، ورد عليه الكامل رداً جميلا ، وأعجب فخر الدين سفير السلطان بما رآه من معرفة الإمبراطور بلغة العرب ، وآدابهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وشرع الحاكمان يتبادلان المجاملات والآراء ، ولشد ما دهش المسيحيون والمسلمون على السواء حين وقعا فى عام ١٢٢٩ معاهدة أعطى الكامل بمقتضاها فردريك مدن عكا ، ويافا ، وصيدا ، والناصرة ، وبيت لحم ، وجميع مدينة بيت المقدس ما عدا الفضاء المحيط بقبة الصخرة المقدسة عند المسلمين . وأجيز فوق ذلك للحجاج المسيحيين أن يأتوا إلى هذا الفضاء ليؤدوا فيه صلواتهم فى موضع هيكل سليمان ، وسمح للمسلمين بمثل هذه الحقوق فى بيت لحم . ونصت المعاهدة فوق ذلك على إطلاق جميع الأسرى من الطرفين المتعاقدين ، وتعهد كلاهما أن يحافظ على السلم عشر سنين وعشرة شهور (٥٧) . وهكذا أفلح الإمبراطور الطريد فيما عجز

عنه المسيحيون فى مائة عام كاملة ، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمان وهما متفاهمتان ، تحترم كلتاهما الأخرى ، ووجدتا أن فى وسعهما أن يعيشا معاً فى صفاء ووئام . واغتبط سكان الأرض المقدسة المسيحيون ، ولكن جريجورى التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبة للعالم المسيحى ، وأبى أن يقرها . ولما رجع فردريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون فى فلسطين على بيت المقدس ، وعقدوا حلفا بين القوة المسيحية فى آسية ، وبين أمير دمشق المسلم ضد سلطان مصر المسلم (١٢٤٤) . واستنجد سلطان مصر بأتراك خوارزم ، فخف هؤلاء لنجدته واستولوا على بيت المقدس ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها . وبعد شهرين من ذلك الوقت هزم بيبرس المسيحيين فى غزة ، وسقطت مدينة بيت المقدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين (أكتوبر سنة ١٢٤٤) .

وبينا كان إنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فردريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور فى إيطاليا نفس المنح والمزايا التى يمنحها من يخدمون فى الأراضى المقدسة ، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة . ذلك أنه لبس شارة الصليب بعد زمن قليل من سقوط أورشليم ، وأقنع نبلاء بلاده أن يحذوا حذوه ؛ ولما حل عيد الميلاد أهدى إلى بعض المسيحيين الذين ظلوا ممتنعين عن الانضمام إلى الحملة أثوابا غالية الثمن نقشت عليها شارة الصليب . وبذل الملك جهده للتوفيق بين إنوسنت وفردريك حتى تلقى الحملة الصليبية تأييد أوربا متحدة . لكن إنوسنت رفض وساطته ، وزاد على هذا الرفض أن بعث راهبا يدعى جيوفنى ده پيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك . ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول . فلما حل عام ١٢٤٨ سار لويس على رأس الفرسان الفرنسيين ومعهم جانسيد جوانفيل الذى روى أعمال الملك فى تاريخه الذائع الصيت . ووصلت الحملة إلى دمياط ، واستولت عليها بعد

قليل من وصولها ، ولكن فيضان النيل السنوى الذى لم يحسب الصليبيون حسابه حين وضعوا خطة الحملة بدأ فى وقت وصول الصليبيين ، وغمر البلاد بالماء فأحاط بالصليبيين وحصرهم فى دمياط مدة نصف عام . على أنهم لم يندموا لما أصابهم لأن « الأشراف » كما يقول جوانفيل « أخذوا يولمون الولائم . . . كما أخذ العامة يصاحبون النساء الفاجرات »[٥٨] . ولما واصل الجيش زحفه ، كان الجوع والمرض ، والفرار ، قد أنهكت قوته وأنقصت عدده ، وأضعفه اختلال نظامه ، فمنى بهزيمة ساحقة عند المنصورة رغم استبساله فى الدفاع عن نفسه ، وتبدد شمله وولى الجنود الأدبار ، وأسر عشرة آلاف من المسيحيين من بينهم لويس نفسه ، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (١٢٥٠) . وعالجه من مرضه طبيب عربى ، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر شهراً بشرط أن يسلم دمياط ويفتدى نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسى (٣٫٨٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . ولما أن قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها ، وقبل نصف الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدى إليه النصف الآخر[٥٩] . وسار الملك على رأس فلول جيشه إلى عكا ، وأقام فيها أربع سنين ، يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها وأن تنضم إليه فى حرب جديدة . وبعث فى هذه الأثناء وليم الربركوازى William of Rubruquois إلى خان المغول يعرض عليه للمرة الثانية دعوة إنوسنت — ولكنه لم يلق منه غير ما لقى فى الدعوة الأولى : ثم عاد فى عام ١٢٥٤ إلى فرنسا .

وكانت السنون التى قضاها فى الشرق قد هدأت ما كان بين المسيحيين فيه من شقاق ، فلما غادره عاد هذا الشقاق سيرته الأولى ؛ فقامت بين أهل البندقية وجنوى بين عامى ١٢٥٦ و١٢٦٠ حرب داخلية فى ثغور الشام ، انضمت فيها

جميع الأحزاب المتنافرة إلى هذا الجانب أو ذاك ، وأنهكت قوى المسيحين فى فلسطين . واغتنم بيبرس أحد السلاطين المماليك فى مصر هذه الفرصة فزحف بجيشه على الساحل واستولى على المدن المسيحية مدينة فى إثر مدينة : قيصرية (١٢٦٥) ، وصفد (١٢٦٦) ، وبافا (١٢٦٧) ، وأنطاكية (١٢٦٨) . وقتل من وقع فى الأسر من المسيحيين أو استرقوا ، وقاست أنطاكية من النهب والحرق ما لم تفق منه قط فيما بعد .

وثارت حمية لويس من جديد فى شيخوخته فلبس شارة الصليب مرة أخرى (١٢٦٧) ، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة ، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا إنها سخافة بلهاء ، وأبوا أن ينضموا إليه ؛ وحتى جوانفيل نفسه رفض رفضاً باتاً أن يشترك فى الحملة الصليبية التالية . ونزل الملك — الحصيف فى حكمه ، الأخرق فى حربه — بقواته القليلة فى بلاد تونس ؛ وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحى ، وأن يهاجم مصر من جهة الغرب . ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض إفريقية حتى « أصيب بنزلة معوية شديدة »[٦٠] ومات وهو يردد لفظ « بيت المقدس » (١٢٧٠) . وبعد عام من ذلك الوقت نزل الأمير إدورد ، ولى عهد إنجلترا فى عكا ، وقاد بعض هجمات جريئة قامت بها حاميتها ، ثم عاد مسرعاً إلى إنجلترا ليضع على رأسه التاج الإنجليزى .

وحلت بالمسيحيين الكارثة الأخيرة حين نهب بعض المغامرين منهم قافلة للمسلمين فى بلاد الشام ، وشنقوا تسعة عشر من التجار المسلمين ، ونهبوا بعض البلدان الإسلامية . وطلب السلطان الترضية الكافية عن هذا الاعتداء ؛ ولم يجب إلى طلبه ، فلم يسعه إلا أن يزحف على عكا أقوى المعاقل الأمامية المسيحية فى فلسطين ، واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً . فلما سقطت فى

يده سمح لرجاله أن يقتلوا أو يسترقوا ستين ألفاً من الأسرى (١٢٩١) . وسرعان ما سقطت بعدئذ فى أيدى المسلمين مدائن صور ، وصيدا ، وحيفا ، وبيروت . وبقى شبح مملكة أورشليم اللاتينية ماثلا إلى حين فى ألقاب بعض الزعماء ، وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية « ليواصلوا السجال العظيم » ، ولكن أوربا أدركت أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها .

obeikandl.com

الفصل التاسع

نتائج الحروب الصليبية

إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التى دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة . ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقيت بيت المقدس فى أيدى المماليك ، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم . يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التى كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها ، ولم يبق فى أيدى المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التى انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية ، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية فى رقتها ، وأسباب راحتها ، وتعليمها وأساليبها الحربية . يضاف إلى هذا كله أن الجهود الكبيرة التى بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوربا بتوجيهها إلى غرض واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية ، وحروب البابوات « الصليبية » على الأباطرة .

ولم يفق الإقطاع مما أصابه من إخفاق فى الحروب الصليبية إلا بأشد الصعاب . ذلك أن الذى كان يوائم النظام الإقطاعى هو المغامرات والبطولة الفردية فى أضيق نطاق ، ولهذا لم تعرف كيف توفق بين أساليبها الخاصة وبين مناخ الشرق والحرب فى الميادين النائية ، وأخطأت خطأ لا يغتفر لها فى حل مشكلة التموين فى خط مواصلاتها الطويل ؛ ثم إنها قد استنفدت فى تلك الحروب ما لديها من عتاد ، وفقدت روحها المعنوية حين لم تقو على فتح بيت المقدس المسلمة بل فتحت بيزنطية المسيحية . وكان كثيرون من الفرسان قد باعوا أملاكهم أو رهنوها للمرابين

أو الكنيسة أو الملوك ليحصلوا على المال اللازم للحروب ؛ وتخلوا من أجل المال عما كان لهم من حقوق فى كثير من المدن القائمة فى أملاكهم ، وأعفوا كثيرين من الفلاحين من الضرائب والالتزامات الإقطاعية المستقبلة بأثمان عاجلة ، وأفاد آلاف من أرقاء الأرض من الامتيازات التى هيأتها لهم الحروب الصليبية بأن تركوا الأراضى التى كانوا يعملون فيها ، ولم يرجع آلاف منهم إلى الضياع . وبينا كانت الثروة الإقطاعية والأسلحة الإقطاعية تتحول نحو الشرق ، كان سلطان الملوك الفرنسيين يقوى وثراؤهم يزداد ، فكانت هذه القوة والزيادة من أهم آثار الحروب الصليبية . وضعفت فى الوقت عينه قوة الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية : فقد ضاعت هيبة أباطرة الغرب لعجزهم عن استرداد الأرض المقدسة ، ولنزاعهم مع البابوية التى أعلت شأنها الحروب الصليبية . أما الدولة الشرقية ، فلم تستعد قط ما كان لها فى سابق عهدها من قوة وشهرة ، رغم مولدها الجديد فى عام ١٢٦١ . لكن الحروب الصليبية قد أفادت العالم الغربى هذه الفائدة : وهى أنه لولاها لاستولى الأتراك على القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣ بزمن طويل ، ذلك أنها أضعفت قوة المسلمين أنفسهم وجعلتهم أقل مقاومة لتيار المغول الجارف .

وحلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية . من هذا أن فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحة عكا فروا إلى قبرص ، وانتزعوا فى عام ١٣١٠ رودس من المسلمين ، واستبدلوا باسمهم القديم اسم فرسان رودس ، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها الأتراك فى عام ١٥٢٢ ، فانتقلوا منها إلى مالطة وأصبحوا فرسان مالطة ، وظلوا باقين حتى حل نظامهم فى عام ١٧٩٩ . أما الفرسان التيوتون فقد نقلوا مقرهم الرئيسى بعد سقوط عكا إلى مارينبورج Marienburg فى بروسيا التى انتزعوها من الصقالبة وضموها إلى ألمانيا . وأعاد فرسان المعبد تنظيم صفوفهم فى فرنسا بعد أن أخرجوا من آسية ؛ وإذ كانت لهم أملاك واسعة غنية فى جميع أنحاء

أوربا ، فقد أخذوا يستمتعون بما تدره عليهم هذه الأملاك ؛ وإذ كانت أملاكهم معفاة من الضرائب فقد كان فى وسعهم أن يقرضوا المال بفوائد أقل من التى يتقاضاها اللمبارد واليهود ، وجمعوا بعملهم هذا ثروة طائلة ، هذا إلى أنهم لم يكونوا كفرسان المعبد ينشئون المستشفيات والمدارس أو يقدمون المعونة للفقراء ؛ وأثارت أموالهم الطائلة المكنوزة ، ودولتهم المسلحة فى داخل الدولة ، وعدم خضوعهم لسلطان الملوك أثارت هذه كلها حسد فليب الرابع الجميل لهم وخوفه منهم وغضبه عليهم ؛ فقبض فى الثانى عشر من شهر أكتوبر عام ١٣١٠ على جميع من كان فى فرنسا من فرسان المعبد دون سابق إنذار لهم ووضع الخاتم الملكى على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا إيمانهم بالدين المسيحى لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم ينكرون المسيح ويبصقون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويحالفون المسلمين سراً ، وأنهم طالما خانوا القضية المسيحية ؛ وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فأنكروا التهم الموجهة إليهم ، وعذبوا لكى يعترفوا ، فمنهم من علقوا من معاصمهم وكانوا يرفعون وينزلون فجاءة ، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية أمام النيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقتلع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقت أوزان ثقيلة فى أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتا بطيئاً من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السالفة الذكر تستخدم مع أولئك الفرسان فى كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جىء بهم ليعاد استجوابهم كانوا ضعافا موشكين على الموت . وأظهر واحـــد منهم العظام التى سقطت من قدميه المحروقتين ، واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التى وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم إنهم قد تلقوا وعداً مختوما بخاتم الملك أن يؤمنوا على حياتهم وترد لهم أملاكهم إذا أقروا بارتكاب التهم التى توجهها لهم الحكومة ، ومات بعضهم فى السجون ، وانتحر البعض الآخر ؛ وشد تسعة وخمسون على

قوائم خشبية وأحرقوا بالنيران (١٣١٠) ، وظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم يجهرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاى Du Molay رئيس الطائفة الأكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب ، فسبق إلى قائمة الإحراق ، فعاد إلى الإنكار ، واقترح محاكموه أن تعاد محاكمته ؛ ولكن فليب لم يرضه هذا التأخير ، وأمر بحرقه على الفور ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك فى فرنسا ، واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الأعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الملك فى أعماله ، وامتنع البابا عن المقاومة وكان فى واقع الأمر سجينا فى أڤنيون ، وأعلن بإيعاز فليب إلغاء نظام فرسان المعبد (١٣١٢) . وصادر إدورد الثانى هو الآخر أملاك فرسان المعبد فى إنجلترا ليسد بها حاجته إلى المال . وأعطى فليب وإدورد الكنيسة بعض هذه الأموال المصادرة ، ووهبا بعضها الآخر لأنصارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعا واسعة ، وأعانوا بها الملوك على الأشراف الإقطاعيين القدامى .

وربما كان بعض الصليبيين قد تعلموا فى الشرق أن يتغاضوا من جديد عن الشذوذ(*) ؛ وفى وسعنا أن نضم هذا ، والعودة إلى إنشاء الحمامات العامة والمراحيض الخاصة فى الغرب ، إلى ما أسفرت عنه الحروب الصليبية من نتائج وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا إلى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحى نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الإسلامية(٦١) ، ودخلت ألف كلمة وكلمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، وانتشرت القصص الشرقية فى أوربا ، وتهيأ لها مظهر جديد فى اللغات القومية الناشئة . وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش المصنوع فى بلاد الإسلام ، وربما كان من نتائج تأثرهم بها أنهم نقلوا من بلاد الشرق الأسرار الفنية التى أدت إلى تحسين الزجاج الملون الذى نشاهده

(*) لقد وصف المؤلف فى المجلدات السابقة انتشار الشذوذ الجنسى فى بلاد أوربا ومنها بلاد اليونان والرومان ، وذكر فى هذا الفصل نفسه تهم الشذوذ الجنسى التى وجهت إلى الهيئات الصليبية المحاربة . (المترجم)

فى الكنائس القوطية[٦٢] . وكانت البوصلة ، والطباعة ، والبارود معروفة فى بلاد الشرق قبل انتهاء الحروب الصليبية ، ولعلها انتقلت إلى أوربا فى أعقاب تلك الحروب . ويلوح أن الأوربيين كانوا أشد جهلا من أن يعنوا بالشعر ، والعلوم ، والفلسفة « العربية » ؛ ولهذا فإن تأثر الغرب بهذه المؤثرات الإسلامية جاء عن طريق أسپانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب . كذلك تأثر الغرب بالثقافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثر أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة كورنثة الفلمنكى أمد توماس أكويناس بتراجم لكتب أرسطو عن أصولها اليونانية مباشرة . وفى وسعنا أن نقول بوجه عام إن ما عرفه الصليبيون من أن أتباع الدين المسيحى قد يكونون مثلهم خلائق متحضرين ، كريمين ، يوثق بهم ويعتمد عليهم ، أو يفوقونهم فى هذه الصفات ، إن ما عرفه الصليبيون من هذا قد بعث بلا ريب بعض العقول على التفكير ، وكان سبباً فى إضعاف العقائد الدينية المقررة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة الإسلامية حديثاً ملؤه الإجلال بل والإعجاب فى بعض الأحيان ، لو سمعه المحاربون فى الحملة الصليبية الأولى لهزهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم[٦٣] .

وعظم سلطان الكنيسة الرومانية وعلت مكانتها إلى أبعد حد بسبب الحملة الصليبية الأولى ، ثم أخذت تضعف بالتدريج بسبب الحملات التى تلتها . وكان منظر الشعوب المختلفة ، والأشراف العظام ، والفرسان ذوى الكبرياء ، والأباطرة والملوك فى بعض الأحيان ، متحدين جميعاً للدفاع عن قضية دينية بزعامة الكنيسة ، كان هذا المنظر سبباً فى رفع مكانة البابوية وعلو شأنها . فقد كان مندوبو البابا يدخلون كل قطر وكل أبرشية ، يحثون الناس على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون لها الأموال ، وكان سلطانهم يزاحم سلطان رجال الدين فى تلك الأقطار والأبرشيات ويطغى عليه فى بعض الأحيان ؛ وبفضلهم أصبح

المستمسكون بدينهم خاضعين مباشرة لسلطان البابا . وأضحى جمع المال على هذا النحو سنة متبعة ، وسرعان ما استخدمت الأموال المجموعة فى أغراض أخرى غير الحملات الصليبية ؛ وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك ، وأن يحول إلى رومة مبالغ كبيرة من المال ، لولا هذا لذهبت إلى خزائن الملوك واستخدمت فى الحاجات المحلية ؛ وأثار هذا بلا ريب غضب الملوك ومقاومتهم . وكان توزيع صكوك الغفران على من يقوم بالخدمة فى فلسطين أربعين يوما عملا مشروعا فى العرف العسكرى ، وكان منح هذه الصكوك الغفرانية نفسها لمن يتكفلون بنفقات محارب من الصليبيين يبدو كذلك من الأعمال التى يمكن التسامح فيها ، أما التوسع فى منح تلك الصكوك ، إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها البابوات ، أو الذين يحاربون حروب البابا فى أوربا ضد فردريك ، ومانفرد Manfread وكنراد فقد كان مصدراً جديداً من مصادر غضب الملوك واستيائهم ، ومبعثاً لفكاهة الناقدين وسخريتهم . وحدث فى عام ١٢٤١ أن أمر جريجورى التاسع مندوبه فى بلاد المجر أن يعفى الذين أقسموا بالتطوع فى الحرب الصليبية من أيمانهم إذا أدوا إليه قدراً من المال ، ثم استخدم ما جمعه من الأموال بهذه الطريقة فى كفاحه المرير ضد فردريك الثانى(٦٤) . وقام الشعراء الجوالون أهل پروفنسال ينتقدون الكنيسة لتحويلها تيار الحرب الصليبية من فلسطين إلى فرنسا ، وذلك بعرضها صكوك الغفران نفسها على من يتطوعون لمحاربة المارقين الألبجنسيين فى فرنسا(٦٥) . ويقول ماثيو باريس Mathew Paris فى التعليق على هذا العمل : « ودهش المؤمنون من أن يعد البابوات بغفران جميع خطايا من يسفكون دماء المسيحيين كما تغفر جميع خطايا من يسفكون دماء الكفار »(٦٦) . وكان كثيرون من ملاك الأراضى قد باعوا أرضهم للكنائس أو الأديرة أو رهنوها لها ليحصلوا بذلك على ما يلزمهم من المال فى الحروب الصليبية ، وأصبح للأديرة بفضل هذا ضياع واسعة . ولما أن انحطت مكانة الكنيسة بسبب إخفاق الحروب

الصليبية أضحت ثروتها هدفا واضحاً لحسد الملوك ، وغضب الشعب وتأنيب النقاد . ومن الناس من كان يعزو الكوارث التى أصابت لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ إلى الحرب التى شنها فى الوقت نفسه إنوسنت الرابع على فردريك الثانى . وقام المتشككون الجريئون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله فى أرضه . ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى ، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم ، لأن محمداً فى رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح(٦٧) .

وكان أثر الحروب الصليبية الذى يلى فى أهميته إضعاف العقيدة الدينية المسيحية هو بث روح النشاط فى الحياة المدنية الأوربية لمعرفة الأوربيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية . ذلك أن الحرب تسدى إلى الناس خبراً واحداً وهو أنها تعلمهم علم تقويم البلدان . فقد عرف التجار الإيطاليون الذين أثروا بفضل الحروب الصليبية كيف يرسمون خرائط للبحر المتوسط ، وتلقى المؤرخون الإخباريون الرهبان الذين رافقوا الفرسان آراء جديدة عن اتساع بلاد آسية واختلاف أصقاعها ونقلوا هذه الآراء إلى غيرهم من الناس ، وبهذا تحركت فى القلوب الرغبة فى الكشف والارتياد ، وظهرت كتب فى وصف الأقاليم والبلدان ترشد الحجاج إلى البلاد المقدسة وإلى داخل البلاد المقدسة ؛ وأخذ الأطباء المسيحيون العلم عن الأطباء اليهود والمسلمين ، وتقدم علم الجراحة بفضل الحروب الصليبية .

وسارت التجارة وراء الصليب ، أو لعل التجارة هى التى قادت الصليب . لقد خسر الفرسان فلسطين ، ولكن الأساطيل التجارية الإيطالية لم تنتزع السيطرة على البحر المتوسط من أيدى المسلمين وحدهم بل انتزعتها كذلك من أيدى البيزنطيين . نعم إن مدائن البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، وأملفى ،

ومرسيليا ، وبرشلونة كانت قبل الحروب الصليبية تتجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخترق مضيق البسفور والبحر الأسود ، ولكن الحروب الصليبية قد وسعت نطاق هذه التجارة إلى أبعد حد . وكان لاستيلاء البنادقة على القسطنطينية ، ونقلهم الحجاج والمحاربين إلى فلسطين ، وتوريدهم المؤن إلى المسيحيين وغير المسيحيين فى بلاد الشرق ، واستيرادهم المحاصيل الشرقية إلى أوربا — كان لهذا كله أكبر الأثر فى انتعاش التجارة والنقل البحرى انتعاشاً لم يكن له نظير منذ أيام مجد رومة الإمبراطورية ، وجاءت إلى أوربا بكميات موفورة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل كالفلفل ، والزنجبيل ، والقرنفل ، والقرفة — وكانت كلها من مواد الترف النادرة فى أوربا فى القرن الحادى عشر . وانتقلت من الشرق إلى الغرب بكميات كبيرة نباتات ومحاصيل وأشجار عرفتها أوربا من قبل من بلاد الأندلس الإسلامية . ومن هذه الذرة ، والأرز ، والسمسم ، والخروب ، والليمون ، والبطيخ ، والخوخ ، والمشمش ، والكرز ، والبلح . وسمى البصل الصغير المعروف باسم الشالوت والعسقلانى من اسم عسقلان الثغر الذى كان ينقل منه على ظهور السفن من الشرق إلى الغرب ، وظل المشمش يسمى « برقوق دمشق » زمناً طويلا[٦٨] . وجاء من بلاد الإسلام الدمقس ، والموصلين ، والساتان ، والمخمل ، والأقمشة المزركشة ، والطنافس ، والأصباغ ، والمساحيق ، والعطور ، والجواهر لتزدان بها بيوت أمراء الإقطاع وأهل الطبقات الوسطى ويتحلى بها رجالهم ونساؤهم[٦٩] . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول ، وأخذت أوربا عن الشرق صناعة تكرير السكر والزجاج « البندق » .

ونمت الصناعة الفلمنكية بوجود أسواق جديدة لها فى بلاد الشرق ، وساعد

هذا النماء على قيام البلدان ونشأة الطبقة الوسطى ، وأدخلت من بلاد بيزنطية والإسلام فنون للأعمال المصرفية أحسن مما كان موجوداً فيها قبل ، فظهرت أشكال ووسائل جديدة للائتمان ، وازداد تداول النقود والآراء كما ازداد عدد الرجال . لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعى زراعى ، نفخت فيه روح البربرية الألمانية الممتزجة بالعاطفة الدينية ؛ واختتمت بقيام الصناعة ، واتساع نطاق التجارة ، فى عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة وأمدته بالمال .

obeikandl.com